المشرق

السنة الثامنة والاربعون

ك٢ - شباط ١٩٥٤

صحف الكتابة وصناعة الورق في الاسلام

بقلم حبيب زيات †

المقدمة

من افجع نكبات العلوم العربية في الشرق ضياع اكثر مؤلفاتها القديمة في الفتن والحروب المتوالية وتلفها بين ألسنة النيران وافواه المياه وكأن كل هذه الجوائح لم تكن كافية لتمزيق شملها وتعفية آثارها حتى كانت تجهز عليها ايضاً ايدي الجهلة من الباعة والتجار والنساء. وقد ندب عماد الدين الاصبهاني سوء حظ كتبه ومسوداته ومصيرها بعد وفاته الى الاساكفة والعطار فقال :

هي كتبي وليس تصلح من بعـ ـدي لغير العطّار والاسكاف

هي اما مزاود العطـ ـر او بطائن الخفاف

وكفى التركات العربية شقاء ان تمتهن صحفها فتكون مزاود للعطر وبطائن

للخفاف والعصائب ثم تحلّ بها ايضاً نقمة الفيارى من النساء . حكى ابن ابي أصيبعة قال :

« حدثني نسيب لموفق الدين بن المطران انه لما توفي كانت عنده مسودات عدة مصنفات طبيّة وغيرها وتعاليق متفرقة فأخذ اخواته تلك المسودات وضاعت بينهن وقال لي انه رأى عند احداهن صندوقاً ارادت ان تبطنه وقد الصقت في باطنه مجلة من هذه الاوراق التي بخطه »[1]

وقال ايضاً في ترجمة الامير محمود الدولة ابي الوفاء المبشر بن فاتك الآمري الطبيب بعد ان وصف خزائن كتبه ودأبه في المطالعة والكتابة :

« كانت له زوجة كبيرة القدر ايضاً من ارباب الدولة فلما توفي رحمه الله نهضت هي وجواريها الى خزانة كتبه وفي قلبها من الكتب وانه كان يشتغل بها عنها فجعلت تندبه وفي اثناء ذلك ترمي الكتب في بركة ماء كبيرة في وسط الدار هي وجواريها ثم شيلت الكتب بعد ذلك من الماء وقد غرق اكثرها . فهذا سبب ان كتب المبشر بن فاتك يوجد كثير منها وهو بهذه الحال »[2]

وكم لهذه الضحايا من اشباه ونظائر منسيّة .

وكان قديماً لكل خزانة في دور العلم وبيوت الحكمة واوقاف الجوامع والمدارس أثبات وجرائد ناطقة بما فيها من المصنفات مفصّلة لنفائسها ونوادرها كالفهرس الذي كانَ في المدرسة النظاميّة مثلًا في بغداد. حكى احد من وقف عليه بنفسه وهو شرف الدين ابو عبدالله محمد بن رضوان الحسيني المعروف بالناسخ بسماع فضل الله الصقاعي منه بدمشق في احد شهور سنة ستين وستمائة (١٢٦٧ م) انه وقف في المدرسة النظاميّة المذكورة على فهرست ما صُنّف في الدولة الاسلامية من سائر الفنون الى آخر ايام المستنصر في سنة تسع وثلاثين وستمائة (١٢٤١ م) قال والفهرست ستة وخمسون مجلداً[3] . فما الظن بما كان بعد ذلك في سائر المدارس ومعاهد العلم وخزائن الخاصة على كثرتها وتفرقها في اهم المدن والاقطار . ومن اعتبر ما كان للبيروني وحده وقرأ قول ياقوت ان تصانيف البيروني في النجوم والهيئة والمنطق والحكمة تفوق الحصر وانه رأى فهرستها في وقف الجامع بمرو في ستين ورقة بخط مكتنز[4] يدرك مقدار ما

١) عيون الانباء في طبقات الاطباء ٢: ١٨١

٢) عيون الانباء ٢: ٩٩

٣) تالي كتاب الاعيان للصقاعي ٢٠٦١ باريس ٦٥

٤) ارشاد الالباء لياقوت ٦: ٣١١

غاب عنا من مؤلفات السلف واوصافها وما حُرمناه من كنوزها وفرائدها .

وفي مثل هذه الحال من ضياع المؤلفات وجرائدها وخسارة الخزائن وفهارسها لم يبقَ لنا سبيل الى ان نعرف هل تقدم لاحدٍ كتاب في تعريف صحف الكتابة وصناعة الورق في الاسلام . ومعلوم ان الكتب والرسائل الموضوعة في الحرف والفنون كانت في كل عصر ومصر قليلة نادرة لان مثل هذه الاوصاف كانت دائماً من اضيق الاغراض نطاقاً واعسرها مطلباً لما تقتضيه من المشاركة والتخصص في معنى ما تفرق من اخبارها وما يحول دون الاحاطة باسرارها من عناء البحث والاستطلاع وطول التفتيش والمراجعة . وهو مما لا يضطلع به الا من رُزق حظاً كافياً من الجلد والصبر وتميز بحب العلم والافادة . ولذلك قلّت المصنفات والشروح في تعريف العلوم والصناعات وانواع المعاشات واعرض الوراقون عن الاهتمام بها وتوفير نُسَخها لزهد الطلاب والقراء في شرائها وتحصيلها وانصرافهم عنها الى ما كان اعلق بدروسهم وامسّ بحاجاتهم كالكتب المختصة بالعلوم الدينية واللسانية . فلا عجب اذا خفي علينا اليوم جلّ ما ازدانت به الحضارة العربية من غرائب الفنون والحرف والتجارات .

ومن الاشارات التي انتهت الينا في شرح انواع الصناعات قديماً ما نقله الصفدي في ترجمة شرف الدين ابن اسد المصري المتوفى سنة ثمان وثلاثين او سبع وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٧ — ١٣٣٦م) انه « وضع كتاباً في مادة كتاب ابن مولاهم في الصنائع الا ان الذي لابن مولاهم في خمسين صناعة والذي لابن اسد في الف ومئتي صناعة ومنها مئتان تختصان بالنساء . قال : وهذا عمل كثير واستقراء عنيد[1] » . ولا محالة انه كان في هذين التاليفين ذكر لصناعة الورق لتعددها وانتشارها قديماً في مدن الشرق ولعلنا لا نبعد عن الحق اذا قلنا ان خسارتنا بضياع كتابي ابن اسد وابن مولاهم تفوق كل خسارة اخرى لخلو ما بأيدينا من العوض عنهما . وانكأ ما في هذه الخسارة وادعاها الى التلهف والتحسر جهلنا اليوم ما كان للنساء خصوصاً من انواع الاشغال والحِرَف وهي ادلّ على ما بلغته الحضارة الشرقية من التفوّق والكمال واعرب عما تقدم في الحياة الاجتماعية من ضروب المعايش ووسائل الارتزاق .

٢) اعيان العصر دار الكتب المصرية رقم ١٠٩١ (تاريخ) ٣-٦٧٠

وقد امعنّا كثيراً في التنقيب والبحث وتلّمنا كل مـا تناولته اليد من المطبوعات والمخطوطات في طوافنا على دور الكتب في الشرق والغرب فلم نظفر الّا باسمَي كتابين فقط ورد فيها شيء من وصف صناعة الورق في الاسلام الاول كتاب « عمدة الكتاب وعدّة ذوي الالباب » في صفة الخط والاقلام والليق والحبر والاصباغ وآلة التجليد الذي أُلّف للامير المعز بن باديس ومنـه نسخة سقيمة في المعهد العلمي في دمياط . ونسختان ناقصتان في دار الكتب المصرية وثالثة في الخزانة التيمورية . ونسخ اخرى في الخزانة العربية في فينّة . وهو الكتاب الذي ترجمه الى الالمانية وعلق عليه ونشره جوزيف ڤون كاراباتشك سنة ١٨٨٣ وضمّنه كل ما وسعه علمه من الفوائد في تاريخ الورق العربي[1] وغاية ما ورد فيه « الباب الحادي عشر في عمل الكاغد وتوشية الاقـلام ونقشها وسقي الكاغد وتعتيقه » والكتاب الثاني مخطوط في الخزانة الآصفية بالهند لمحمد بن قوام المعروف بقاضي خان (٨٧٦ / ١٤٧١) دعاه المخترع في فنون من الصُنع (كذا) وقد تفضل صديقنا الاستاذ كوركيس عواد بتصدير صفحات الباب الخامس منه وعنوانه « عمل الكاغد البلدي ووضع الاسرار في الكتب وما يمحو الدفاتر والرقوق » ولكن لسوء الحظ الفيناه كثير التحريف وفي مواضع منه بياض غير قليل فلم نستفد منه الفائدة التي كنا نتوخاها .

وهنالك اجزاء وورقات وُضعت في ذكر القلم والليق والحبر كالرسالة التي قرأناها في دار الكتب المصرية وليس فيها ما يُحتفل به ولها نظائر في الخزائن العامة والخاصة خلافاً لما تقدم في معناها ككتاب القلم والدواة لمحمد بن عمر المدائني الذي اقتبس منه القلقشندي بعض اقواله في صبح الاعشى . ولا نشك انه قد فاتنا بضياعه فوائد شتى ان لم تكن في تفسير عمل الكاغد فلا محالة في اوصاف الورق وانواعه كالفصول التي وردت في مخطوط باريس (رقم ٤٤٣٩) الموسوم غلطاً في رأينا بعنوان « ديوان الانشا . » وهي التي نقلناها في الكلام على الورق المصري والشامي .

ولما اخفق رجاؤنا ان نعثر على دفائن اخرى في شرح صناعة الورق والاستزادة

---

1) A. Grahman : *Arabic Papyri in the Egyptian Library*. 3 vol. Cairo 1934—38

من وصفها اقبلنا على تصفح كل ما وقع الينا من كتب اللغة والانشاء والتراجم والسِيَر والنوادر والمجاميع الادبية والاسفار التاريخية وقيدنا منها كل تصريح او تلويح الى القراطيس والكواغد واعمالها وانواعها واخبارها في الاسلام. وظللنا نعاني مشاقّ هذا الاستقراء الطويل عدة سنين حتى اعيانا المزيد . وضقنا ذرعاً باكتشاف جديد ورأينا انه اجتمع لنا من هذه اللُقَط جانب ان لم يبلغ حد الكفاية ففيه على كل حال بلغة وغناء. في تاريخ الورق الشرقي فبدأنا على سبيل التمثيل بنشر فصول من مجموعنا بعنوان « الجلود والرقوق والطروس » ظهرت في مجلة الكتاب في القاهرة (يوليه — تموز سنة ١٩٤٧ ص١٣٥٨ — ١٣٦٦) ثم توقفنا عن المزيد ريثما يتيسر لنا تفقد شيء من ماضي الكاغد وصناعته في الاندلس العربي وهو ما اقتضى دهرًا طويلاً لتعذر السفر اليه ·

وقد رتَّبنا ما عثرنا عليه من الفوائد والشوارد والاشارات ترتيباً نرجو ان نكون قاربنا فيه شاكلة الصواب واستعنّا في كتابة ما اخترناه في تعريف البردي والبرديات والقراطيس بمؤلف العلامة جرهمان[1] في المجلد الاول منه الذي عرَّبه بمشاركة الدكتور حسن ابرهيم حسن في القاهرة سنة ١٩٣٤ . وقسمنا الكلام على ما سبق ظهور الكاغد في اوائل الخلافة العباسية من مواد الكتابة تقسيماً يخال لنا اننا احطنا باهم اجناسه واطلقنا على هذه المكاتب وبينها الحجر والخزف والعظام والجلود والثياب لفظة الصحف لان الصحيفة في اللغة تتناول كل ما يُكتب فيه وقد وردت لذلك بمعنى الجلد في حكاية دعبل الشاعر المعروف قال :

« جاءني ابو سعد المخزومي يوماً ببغداد اشد ما كان بيني وبينه من الهجاء وبين يدي صحيفة ودواة وانا اهجوه فيها . فامرت الغلام برفع الدواة والجلد الذي كان بين يدي . فقال لي أنا اليوم في دعوة عندك (وبعد أن أكل وشرب) ودعني وانصرف وامرت غلماني تخرجوا معه الى الباب فاذا غلام منهم قد انصرف الي بقطعة قرطاس (فيها بيتان هجاء لدعبل) فقال دعبل : ويلي على ابن الفاعلة هاتوا جلدا ودواة . . فعدت الى هجائه »[1]

ومن اظهر الشواهد ايضاً على ورود الصحف بمعنى الجلود ما حكاه ابن المقفع عن الفرس وكتابتهم في الجلود البيض قال :

---

١) الاغاني طبعة بولاق ١٨—٥٣

«كانت الرسائل بحمل المال تُقرأ على الملك وهي يومئذ تكتب في صحف بيض وكان صاحب الخراج يأتي الملك كل سنة بصحف موصّلة قد اثبت فيها ما اجتُبي من الخراج وما أُنفق في وجوه النفقات وما حصل في بيت المال فيختمها ويجيزها . فلما كان كسرى بن هرمز تأذى بروائح تلك الصحف وامر ان لا يرفع اليه صاحب ديوان خراجه مما يرفع الا في صحف مصفّرة بالزعفران وماء الورد وان لا تُكتب الصحف التي تُعرض عليه بحمل المال الا مصفرة ففُعل ذلك»[1]

وقد دعا ابو معشر البلخي مثل هذه المواد التي كان يُخطُّ فيها «المكاتب» اي ما يكتب فيه وهي اصح تسمية واكثر مطابقة ولكنا اخترنا العدول عنها لامكان التباسها بمواضع التعليم اليوم او مواضع كتابة الجند للحروب قديماً.

ولا ريب انه شذ عنا كثير من اخبار الصحف واوصاف عمل الكاغد في الاسلام لقلة ما كتب عنها او لضياعه بيد الحوادث والغِيَر وما نشرناه منها كاف على كل حال للدلالة على ما كان لهذه الصناعة والاتجار بها من القدر وجلالة الشأن وقد طبقت شهرتها آفاق المشرق وبقي لها الى اليوم آثار في مصطلحات كتاب المغرب .

١ ــ اللخاف والخزف

اللخاف حجارة بيض عراض رقاق واحدتها لَخفة وفي حديث زيد بن ثابت حين امره ابو بكر الخليفة الاول ان يجمع القرآن قال : فجعلت اتتبعه من الرقاع واللخاف والعُسُب[2] وفي صحيح البخاري قال زيد بن ثابت : فتتبعت القرآن اجمعه من العسب والرقاع واللخاف وصدور الرجال[3]. ومن البديهي ان يكون اول ما عمد اليه الكاتب العربي لتسطير الكلام وتقييد الخواطر ما وقعت عليه عينه وتناولته يده من الحجارة البيض الرقاق العراض الملس لسهولة الخط عليها . واكثر ما كانت تستعمل في القرى والبوادي حيث يسهل وجودها واختيارها واما في المدن والحواضر فكانوا يؤثرون عليها شقاف الخزف والفخار وما تكسر من صحاف الفخار والآنية . وكان الشافعي في حداثته يتلقطها في جملة

١) فتوح البلدان للبلاذري طبعة اروبة ٣: ٤٦٤

٢) لسان العرب ١١: ٢٢٧

٣) صحيح البخاري ٣: ١٦٢

ما يجمعه من صحف الكتابة لتدوين الحديث وهو قوله بسماع الربيع بن سليمان: لما خرجت من الكتّاب كنت التقط الخزف[١] .

وكانت مثل هذه الكتابة على الخزف باقية في ايام الخلافة العباسية حتى بعد ظهور الورق السمرقندي . وممن عُزِل عن ولايتهِ بسببها ابرهيم بن المهدي اخي هرون الرشيد وكان وليَّ امارة دمشق فاشتهى يوماً شرب الصبوح وامر باغلاق ابواب « الخضراء » دار معاوية قديماً حيث كان يقيم عمّال دمشق ولم تكن خربت بعد خلافاً لمن ظن انها زالت بزوال دولة الامويين » فحضر الكاتب وسأله بعض الحشم ان يكتب له الى صاحب النُزُل وأعجله عن استخراج الدواة فأخذ فحمة وكتب في خزفة بحاجته فأخذ الحاجب سليم تلك الفحمة وكتب على الحائط « كاتب يكتب بفحمة وحاجب لا يصل » واتفق ان واني صاحب البريد وهو عين للخليفة يطالعه باخبار العمال والولاة فكتب بذلك الى الرشيد وهو في مدينة الرقة ووصل اليه كتابه في اليوم الرابع فساعة وقع بصر الرشيد على الكتاب عزل اخاه ابرهيم وحبسه مائة يوم »[٢] .

ومن امراء العباسيين الذين كتبوا في الخزف قبل الخلافة عبدالله بن المعتز قال بعض من كان يخدمه :

« خرج يوماً يتنزه ومعه ندماؤه وقصد الجديد وبستان الناعورة وكان ذلك آخر ايامه فأخذ خزفة وكتب عليها بالجص[٣]

سقياً لفضل زماني ... ودهري المحمود
ولّى كليلة وصلٍ ... قدام يوم صدود

قال وضرب الدهر ضربانه ثم عدت بعد قتله فوجدت خطه خفياً وتحته مكتوب :

أفّ لكل زماني ... وعيشي المحمود
فارقت اهلي والفي ... وصاحبي وودودي
ومن دويت جفاني ... مطاوعاً لحسودي
يا رب موتاً والا ... فراحة من صدود »[٤]

---

١) ارشاد الارب لياقوت ٦ : ٢٦٩؟ وتاريخ ابن عساكر دار الكتب الظاهرية دمشق ١٤ : ٩٩؟

٢) تاريخ الاسلام للذهبي خزانة اكسفرد Lond. Or. 244 fo 182—83

٣) في الاصل المطبوع « وكتب على الجص » والصواب ما اخترناه .

٤) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص لعبد الرحيم بن احمد العباسي ٢ : ٤٤—٤٥

وكان صبيان المكاتب وبعض المتأدبين وطلاب الحديث يؤثرون هذه الصحف الخزفية الملس لتقييد ما يروق لهم او يُملى عليهم من الفوائد والسماعات. ومن اشهر الجرّارين الذين كانوا يُقصَدون للحصول على امثال هذه الرقاع لتدوين ما يتعجلونه او يقع اليهم من الاخبار والاشعار ابو العتاهية قبل ان يحترف الشعر حدث عبد الحميد بن سريع مولى بني عجل قال :

« انا رأيت ابا العتاهية وهو جرار يأتيه الاحداث والمتأدبون فينشدهم اشعاره فيأخذون ما تكسر من الخزف فيكتبونها فيها »[١]

ولم يذكر احد بأي قلم او حبر في ما عدا الفحم والجص كان يكتب في اللخاف والخزف ولا سيما عند مفاجأة السماع ولعله كان لمثل هذه الصحف ادوات خاصة كالملول الذي كان يكتب به على الالواح كما سيجيء.

وفي داري الكتب والتحف الملكية في القاهرة وبعض المتاحف الاوربية في ڤينّة وبرلين وهمبورغ قطع معدودة من هذه الخزفيات العربية الجميلة. وكان بين انقاض قصر خربة مفجر شمالي اريحا التي نقلت الى دار التحف في القدس قطعة من اللخاف كتب عليها بخط كوفي « لعبدالله بن هشام امير المؤمنين من عبيد الله بن عمر سلّم عليك فاني احمد الله اليك الذي لا إله الا هو ». وعُثر في قصر الحير الغربي على قطعة من اللخاف كتب عليها « من هشام امير المؤمنين الى ابي العباس احمد »[٢].

٢ ـ الكَرَب والعُسُب

الكرب اصول السعف الغلاظ العراض التي تيبس فتصير مثل الكتف واحدتها كَرَبة[٣] ومن اشهر من كتب الحديث على الكرب وملأ منها ومن غيرها الجِباب والجرار الامام الشافعي كما سيأتي من قوله .

والعُسُب جمع عسيب وهو جريد النخل اذا نُحّي عنه خوصه والعسيب من السعف فويق الكرب لم ينبت عليه الخوص... ومنه حديث زيد بن ثابت :

١) الاغاني طبعة بولاق ٣ : ١٢٩
٢) مجلة المجمع العربي بدمشق (ايار — حزيران ١٩٤٣) ص ٢٢١—٢٢٥
٣) لسان العرب عن المحكم ٢ : ٢٠٨

فجعلت اتتبع القرآن من العسب واللخاف ومنه ايضاً حديث الزهري : قبض رسول الله (صلعم) والقرآن في العسب والقضم[١] قال لبيد يصف كاتباً :

متعود لحن يعيد بكفه قلماً على عسب ذبلن وبان[٢]

يريد بالعسب الذابلة اليابسة ويظهر ان العسب اليمانية كانت تفضل ما سواها ولذلك كانت اكثر ما تذكر في وصف مزامير داود قال امرؤ القيس :

لمن طلل ابصرته فشجاني كخط زبور في عسيب يمان[٣]

وقال كثير في وصف منازل الضبع :

تلوح باطراف البضيع كأنها كتاب زبور خط لدنا عسيبها[٤]

ولم نجد من ذكر البان في غير بيت لبيد المتقدم فهل كان يستصلح شيء منه للكتابة ؟

٣ ــ لحاء الشجر

من اشهر انواع قشور الشجر التي كتب فيها قبل الاسلام لحاء الكاذي. قال المسعودي : كتب ملك الهند الى كسرى انو شروان... وكان كتابه في لحاء الشجر المعروف بالكاذي مكتوب بالذهب الاحمر . وهذا الشجر يكون بأرض الهند والصين وهو نوع من النبات عجيب ذو لون حسن وريح طيب لحاؤه أرق من الورق الصيني تتكاتب فيه ملوك الصين والهند[٥] .

وسمى البيروني هذا اللحاء « تاري » في كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مرذولة (ص٨١ طبعة ليبسيك) ويشبه ان يكون الإسمان لمسمى واحد ما لم يكن وقع تحريف في الثاني .

ويتحصل من قول حمزة الاصفهاني ان ملوك فارس سبقوا ملوك الهند والصين في الكتابة على قشور شجرة يقال لها الخذنك او الخدنك تعمل منها القسي

١) لسان العرب ٣ : ٨٩

٢) امالي القالي طبعة الدار ١ : ٥

٣) العقد الثمين في دواوين الشعراء الثلاثة الجاهليين ١٠٩

٤) معجم البلدان طبعة اروبة ١ : ٦٥٨

٥) مروج الذهب بهامش نفح الطيب ١ : ٣٣٤

القبي ايضاً[١] ويسمى خاؤها التُوز. والخدنك نوع من الحور الابيض قال حمزة:

« سنة خمسين وثلثمائة (٩٦١ م) تهدم من البنية المسماة سارويه في داخل مدينة جي جانب وظهر منه بيت فيه نحو خمسين عدلاً من جلود مكتوبة بخط لم يرَ الناس قبله مثله فلا يدري متى احرز ذلك في هذه البنية. وسُئلتُ عما اعرفه من خبر هذه المصنعة العجيبة البناء فاخرجت الى حضرة الناس كتاباً لابي معشر البلخي مترجماً بكتاب اختلاف الزيجة ويقول فيه : ان الملوك بلغ من عنايتهم بصيانة العلوم وحرصهم على بقائها على وجه الدهر واشفاقهم عليها من احداث الجو وآفات الارض ان اختاروا لها من المكاتب اصبرها على الاحداث وابقاها على الدهر وابعدها من التعفن والدروس لحاء شجر الخدنك ولحاؤه يسمى التوز وبهم اقتدى اهل الهند والصين »[٢]

ومن اشار الى ذلك ايضاً المافروخي قال :« كانوا يكتبون الكتب في لحاء التوز اذ صادفوها ابعد من التعفن واسلم من الدروس »[٣]. ووصف البيروني لحاء التوز فقال يعملون به عملاً كالتدهين والصقل يصلب به ويملس ثم يكتبون عليها يعرف نظامها بارقام العدد المتوالي »[٤]

ويظهر ان ورق التوز كان معروفاً موجوداً بدمشق في اواخر القرن السابع للهجرة وهو ما يستفاد من قول ابن شاكر الكتبي في ترجمة جوبان بن مسعود القواس التوزي قال :

« لم يكن يعرف الخط ولا النحو وكانت كتابته من جهة التنوير في غاية القوة بحيث انه استعار من القاضي عماد الدين بن الشيرازي درجاً بخط ابن البواب ونقل ما فيه الى درج بورق التوز والزق ورق التوز على خشب واوقف عليه ابن الشيرازي فاعجبه وشهد له ان في بعض ذلك شيئاً اقوى من خط ابن البواب واشتهر بذلك في دمشق وبقي الناس يقصدونه ويتفرجون عليه وكان له ذهن خارق وتوفي في حدود الثمانين وستمائة[٥] (١٢٨١ م).

ومن قشور الشجر التي كان يُكتب عليها وتختم بختم السلطان في مملكة الهند والسند ويتعامل بها كالنقود لحاء التوت وهي التي دعاها ابن الفوطي « الجاو » وابن بطوطة «دراهم الكاغد»[٦] قال شهاب الدين العمري في كلامه على المملكة المشار اليها :

١) الفهرست لابن النديم طبعة القاهرة ٣٣٤ وخطط المقريزي مطبعة النيل ٦ : ١٨٦
٢) تاريخ ملوك الارض طبعة كلكتا ١٧٢–١٧٣ والآثار الباقية للبيروني ٢٤
٣) محاسن اصفهان ٩٢
٤) تحقيق ما للهند من مقولة ٨١ ٥) فوات الوفيات ١ : ١٤٠
٦) طالع مقالتنا « دراهم الكاغد » في الخزانة الشرقية ٢ : ١٣٦–١٤٠

« معاملتهم بقشور من لحاء شجر التوت مطبوعاً باسم القان فاذا عتق ذلك المتعاطى به حمله الى نواب القان واخذ عوضه مع خسارة لطيفة كما يوخذ في دار الضرب على ما يوخذ اليها من الذهب والفضة ليُضرب بها[1] . . . ومعاملتهم بورق التوت ومنها كبار ومنها صغار فمنها ما يقوم في المعاملة مقام الدرهم الواحد ومنها ما يقوم مقام درهمين ومنها ما يقوم مقـام خمسة واكثر الى ثلثين وخمسين ومائة وهو يوخذ من لحاء شجر التوت اللّين ويختم باسم القان وتجري به المعاملات فاذا عتق واضمحلّ حُمل الى الخزانة وأُعطي عوضه مع غرم قليل »[2] .

٤ ـ العظام والاكتاف

في لسان العرب : الكتف عظم عريض يكون في اصل كتف الحيوان من الناس والدواب كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم (١١ : ٢٠٢) .

وقال ابن النديم : « ان العرب تكتب في اكتاف الابل واللخاف وهي الحجارة الرقاق البيض وفي العسب عسب النخل »[3] . وذكر ابن خلكان في كلامه على « مسك الجفر » وهو جلد الماعز تقول الشيعة ان الامام جعفر الصادق كتب لهم فيه كل ما يحتاجون اليه وكل ما يكون الى القيامة قال : « كانت عادتهم في ذلك الزمان انهم يكتبون في العظام والخزف وما شاكل ذلك »[4] .

ولا ريب ان هذه الكتابة في البادية كانت شائعـة كل الشيوع لكثرة الابل فيها وما كان يُنحر منها ولكنها كانت معروفة ايضاً في الحواضر وبقيت فيها الى ما بعد ظهور الورق وذلك لوفرة العظام والاكتاف قال الشافعي :

« لما خرجت من الكتاب كنت التقط الخزف والرقوق وكرب النخل واكتاف الجمال اكتب فيها الحديث واجيء الى الدواوين فاستوهب منها الظهور فاكتب فيها حتى كانت لأمي حباب فملأتها اكتافاً وخزفاً وكرباً مملوءة حديثاً »[5] .

وكانت هذه الاكتاف سهلة المتناول يجدهـا المرتد لها من ايسر سبيل ويُترسّل بها حتى الى النساء « قال الاصمعي : كان عمر بن ابي ربيعة وابن ابي

---

١) الجزء الثالث من مسالك الابصار خزانة باريس ٢٣٢٥ ص ٤٢

٢) الجزء الثالث من مسالك الابصار خزانة باريس ٢٣٢٥ ص ٤٦

٣) الفهرست ٣١

٤) وفيات الاعيان لابن خلكان ١ : ٢٩٢

٥) ارشاد الاريب طبعة مرجليوث ٦ : ٣٦٩ وتاريخ ابن عساكر الظاهرية دمشق ١٤ : ٩٩ ب

عتيق جالسين بفناء الكعبة فمرت بهما امرأة من ربيعة وقيل من آل ابي سفيان فدعا عمر بكتف فكتب فيها :

أَلِمّا بذات الخال فاستطلعا لنا على العهد باقٍ ودها ام تصرما
وقولا لها ان النوى اجنبيّة بنا وبكم قد خفت ان تتيمّا

فقال له ابن عتيق: «ما تريد الى امرأة مسلمة محرمة تكتب لها بمثل هذا؟»[١].

وحكى ابو الفرج الاصبهاني قال : حدثني مولى لبني كليب بن يربوع ... قال : كنت اجمع شعر جرير ... فجاءني ليلة ... فأكل ثم قال هلمّ نبيذك ثم قال هات دواة وكتفاً فأتيته بها فجعل يملي علي قوله : « أَقِلّي اللوم عاذلَ والعتابا » [٢].

وفي بعض الاقوال ان الجواري والفتيات في عهد الخلفاء العباسيين كنّ يتلقّن مثل هذه الكتابة ويتدرّبن عليها ولابي دلامة المشهور قصيدة الى العباس ابن المنصور قال فيها :

هذي مقالة شيخ من بني اسد يهدي السلام الى العباس في الصحف
تخطُّها من جواري المصر كاتبة قد طالما ضربت في اللام والالف
وطالما اختلفت صيفاً وشاتية الى معلّمها باللوح والكتف[٣]

ولا نظن ان الاكتاف كانت تؤخذ من الابل وحدها دون غيرها من اكتاف الحمر الوحشية والغنم والماعز وفي دار الكتب والتحف المصرية نفائس من الاكتاف المكتوبة .

٥ ــ الخِرَق والثياب البيض

في خزانة الادب للبغدادي ان المعلقات المشهورة كانت تسمى المذهبات قال : وذلك انها اختيرت من سائر الشعر فكتبت في القباطي بماء الذهب وعلّقت في الكعبة[٤] . ولا ندري عمن نقل هذا القول وليس في الآثار القديمة ما

١) كتاب الموشى لابي الطيب محمد بن اسحق بن يحيى الوشا ٤٥–٦٦
٢) الاغاني ٩ : ١٣٦
٣) الاغاني ٩ : ١٣٦ والعقد الفريد لابن عبد ربه المطبعة الازهرية ١ : ٨٠
٤) خزانة الادب المطبعة السلفية ١ : ١٣٢

يزيده وفيه اشارة الى استعمال القباطي في الجاهلية للكتابة . والقبا
قبطية وهي ثياب من الكتان كان يصطنعها حاكة القبط في مصر في
البياض والنقاء. ولذلك صح تشبيهها باللبن المحض في بيت لرجل من الـ
به المغيرة بن شعبة وكان اعور دميماً فشبّهه اذا مشى متأزراً بقبطيته بـ
ضرب من الخنفساء، يركض في اللبن فقال :

اذا راح في قبطيـة متأزراً فقل جعل يستنّ في لبن محـ

ومن النُسُج التي كانت تستصلح للكتابة الثياب القوهية. يقال ثـ
نسبة الى قوهستان بلد في كرمان في فارس وهو ثوب ابيض قيل ٥ لمـ
الثريا وعمر بن ابي ربيعة غائب كتب اليها :

كتبت اليك من بلدي كتابة موله كمد.

وكتبه في قوهيّة وشنّفه وحسّنه وبعث به اليها فلما قرأته . كتبت ا

اتاني كتاب لم يرَ الناس مثله أُمِدَّ بكافور ومسك وعـ
وقرطاسه قوهيّـة ورباطه بعقد من الياقوت صافٍ وحو

وربما كتبوا الصِداق وهو مهر المرأة في النصافي البيض جمع نصفـ
الثياب وعدّ ابن الحاج مثل هذه الكتابة من باب المباهاة والمخالفـة
لبس النصافي مباحاً للرجال والنساء. قـال : « وهذا ليس يلبس والـ
موجود وذلك منهيٌ عنه ولهم في الرق وغيره من المباح اتساع »[2] .
« ولما قال دعبل قصيدته المعروفة :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصا
كانت مكتوبة في ثوب فأحرم فيه وامر ان يجعل في أكفانه »[4]

وفي سنة ١٣٦/٧٥٣ « بايع ابو العبـاس السفاح لابي جعفر المنـ
العهد بعده ولابن اخيه عيسى بن موسى بعد ابي جعفر وكتب العـ

---

١) الاغاني للقالي ٣٧٨
٢) الاغاني طبعة الدار ١ : ٣٣٥-٣٣٦

وختمه بخاتمه وخواتيم اهل بيته ودفعه الى موسى بن عيسى

وفي سنة ٦٨٠/١٢٨٢ «يوم السبت سادس رمضان حضرت رسل الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن علي بن رسول متملك اليمن وسألوا ان يُكتب لمرسليهم امان على قميص وتُعلّم عليه العلامة السلطانية فأجيبوا الى ذلك»[١].

وكانوا يتخذون ايضاً الثياب البيض للتصوير واكثر ما يصوَّر عليها «صفة الدنيا» قال ابن النديم: «رأيت هذه الصفة في ثياب دبيقي خام باصباغ وقد شُنعت الاصباغ»[٢]. ورأى البشاري المقدسي هذه الصفة «على كرباسة عند ابي القاسم ابن الانماطي بنيسابور»[٤]. والكرباسة ثوب من القطن الابيض تغلب عليه الخشونة ومثل هذا التصوير هو المعروف اليوم بالخارطة.

ومن اشباه هذه الثياب والخرق كانوا يتخذون الصُرَر لتغليف النقود وارسالها بعد ان يُخطّ عليها اسم مرسلها وعنوان من ترسل له وفيها كانت تدوَّن بعض الرسائل والمخاطبات والوثائق والبراءات. وكانت الحاكة في بوصير وسحنود يصطنعون خرقاً خاصة لمثل هذه الكتابات يجعلونها كالبطاقات ويعلقونها بأعناق الجرار والاوعية التي كانوا يصونون فيها الكتب ومدارج القراطيس خوفاً من تقصّفها وتقطعها فكان بكل قمطر منها بطاقة منوطة به باسم صاحبها بعد استنزال البركة عليه كما يشهد بذلك ما وجد في دفائن الصعيد من البرديات المكتشفة في القرن الماضي.

وفي دار التحف المصرية وبين مجموع البرديات في فينة امثلة في غاية النفاسة من قطع النسيج المكتوبة.

٦ ــ المهارق واثواب الحرير

للحارث بن حلزة اليشكري من معلقته:

---

١) تاريخ الموصل رواية ابي زكريا يزيد بن محمد بن اياس الازدي مجلد مصور في دار الكتب المصرية رقم ٢٤٧٥ (تاريخ) ص ١٢٨

٢) السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ٢:١٠٣

٣) الفهرست ٣٩٧

٤) احسن التقاسيم ٦

واذكروا حلف ذي المجاز وما قُدّم فيه العهود والكفلاء
حذر الجور والتعدي وهل ينقض ما في المهارق الاهواء

قال الزوزني : « المهارق جمع مهرق وهو فارسي معرب يأخذون الخرقة ويطلونها بشيء ثم يصقلونها ثم يكتبون عليها شيئاً »[١] . وروى صاحب لسان العرب قول حسان :

كم للمنازل من شهر واحوال لآل اسماء مثل المهرق البالي

وقال :

« المهرق ثوب حرير ابيض يسقى الصمغ ويصقل ثم يكتب فيه وهو بالفارسية مهركرد وقيل مهره لان الخرزة التي يصقل بها يقال لها بالفارسية كذلك »[٢] .

وجاء مثل ذلك في المعرب للجواليقي وان اصلها مهركرده اي صقلت بالخرز (وفي الاصل المطبوع صقلت بالجوز غلطاً)[٣] . وهذا التفسير هو الاصل ثم عم الصقل سائر الخرق والاثواب فأطلق لفظ المهرق عليها بالمشابهة وتناول في ما بعد كل صحيفة يكتب فيها كما عم لفظ القرطاس كل انواع الورق وهو في الاصل موضوع لصحف البردي . ومن شواهد اطلاق المهرق على كل صحيفة قول شُيَيم بن خويلد الفزاري :

تسمع اصوات كدريّ الفراغ به مثل الاعاجم تغشي المهرق القلما[٤]

وعند الجاحظ ان المهارق ليس يراد بها الصحف والكتب ولا يقال للكتب مهارق حتى تكون كُتُب دين او كتب عهود وميثاق وامان »[٥] وهذا اذا صح في بعض الشواهد كما في بيت الحارث بن حلزة المتقدم فلا يصح على الاطلاق والشواهد على خلافه في النظم والنثر كثيرة .

وكانت الكتابة على الصحف الحريرية اكثر ما تكون من خصائص الملوك ورجال الدولة والمترفين والاغنياء . « ولما صار عيسى بن موسى بفَيْد متوجهاً لقتال محمد بن عبدالله بن حسن كتب لرجال اهل المدينة في خِرَق الحرير »[٦] . ونقل

١) شرح المعلقات للزوزني ١٨٣
٢) لسان العرب ١٢ : ٢٤٧
٣) المعرب للجواليقي ١٣٥
٤) نقائض جرير والفرزدق طبعة بيفان ليدن ١ : ١٠٦
٥) كتاب الحيوان للجاحظ طبعة القاهرة ١٣٢٣ ص ٢٥
٦) تاريخ الطبري طبعة ليدن ٣ : ٢٤٤

عن الخليفة العباسي الراضي بالله انه « ضاق صدره لكثرة ما اضطرب عليه من قيام المتغلبين بالنواحي فقال احب ان انظر في اخبار الماضين من الملوك لاتسلى بما مر عليهم فقيل له : ما تجد هذا مجموعاً الا في تاريخ محمد بن جرير الطبري فأمر ان يحضر له فأعجبه وقال : يُنسخ هذا في رق نظيف ويصوَّر جميع ما فيه وعزل له بيتاً ووجّه الى دشتر (تستر) فاستُعمل له ديباج منسوج بالذهب مكان الجلود »[١] .

وفي محاسن القيادة للجاحظ « ناولتني خريطة فيها اوراق فقالت : هذا اول ما ورد علينا منه . فاذا فيها ثوب خز ابيض يقق مكتوب فيه بماء الذهب . . »[٢]

وروى ابن خلكان ان المأمون « طالب والدة الفضل (بن سهل) بما خلّفه فحملت اليه سلة مختومة مقفلة ففتح قفلها فاذا صندوق صغير مختوم واذا فيه درج وفي الدرج رقعة من حرير مكتوب فيها بخطه « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما قضى الفضل بن سهل قضى انه يعيش ثمانياً واربعين سنة ثم يقتل ما بين ماء ونار »[٣] .

وحكى ابن النديم ان « ملكة الفرنجة كتبت الى المكتفي كتاباً في حرير ابيض وانفذته مع خادم وقع الى بلدها من جهة المغرب تخطب صداقة المكتفي وتطلب التزويج به وكان اسم الخادم علياً من خدم ابن الاغلب »[٤].

واعتاد الملوك والامراء كتابة الصداق في الحرير « ولما تزوج هولاكو ببنت ملك الكرج داود قال ابن البواب : وانا كتبت الكتاب في ثوب اطلس ابيض »[٥]. وفي سنة ٦٣٢/١٢٣٤ تزوج مجاهد الدين ايبك ابنة بدر الدين لولو « وكتب الكتاب في ثوب اطلس ابيض »[٦].

واقتدى بهم الاغنياء . وقد سبق ان ابن الحاج عدّ ذلك من باب السرف والمخالفة . وقال علوان الحموي في اوائل القرن العاشر للهجرة « ان اقبح البدع

---

١) قطب السرور في وصف الانبذة والخمور للرقيق القيرواني ٣٣٠٣ خزانة باريس ٢٥٣
٢) المحاسن والاضداد المنسوب للجاحظ ٣٤١
٣) وفيات الاعيان طبعة دسلان ٥٧٧
٤) الفهرست لابن النديم ٣٠
٥) المنهل الصافي لابن تغري بردي مجلد مصور في الجامعة العبرية في القدس ٨ : ٢٦٤
٦) الحوادث الجامعة لكمال الدين ابن الفوطي ٧٣

ما حدث في بلادنا في الاعراس . . فاذا جرى العقد ابى اهل العروس ان يكتبوا ذلك الا على حرير نحو ذراع او اكثر إسرافاً وتبذيراً »[١] . ولكن تاج الدين السبكي رجح جواز مثل هذه الكتابة وقال : واما كتابة الشروطيين الصداق في الحرير فمختلف في جوازه وافتى النووي بتحريمه وعزاه الى جماعات من اصحابنا ولكن الاظهر حله لانه لمصلحة النساء »[٢] .

وندر جداً ان يكتب الصداق في غير الثوب الحرير الابيض وفي مجلة المجمع العلمي العربي صفة عقدين كتبا في اواسط القرن الثامن للهجرة على قطعتين من نسيج الحرير الاخضر لم يُبلهما مر الزمان ولم تُصب احداهما بأدنى تمزق وتخرق[٣] فبأي حبر يا ترى كانت تمكن الكتابة على الحرير الاخضر حتى يأتي عليها الدهر دون ان تزول .

٧ – الالواح

لم نجد لاحد قولاً في الالواح وتعريفها على كثرة الاشارة اليها في كتب الادب وورود لفظها في القرآن وهي قديمة سبقت الاسلام واول ما اتخذت في ما يظهر من جرائد النخل التي نُزع خوصها وكان يقال لها السّبورة بالباء والسّفّورة بالفاء . وفي الحديث : لا بأس ان يصلي الرجل وفي كمه سبّورة قالوا : « هي الالواح من الساج يكتب فيها التذاكير »[٤] والساج خشب اسود رزين طويل البقاء . وربما اتخذت ايضاً من الاكتاف وعليه تفسير الازهري : اللوح صفيحة من صفائح الخشب والكتف اذا كتب عليه سمي لوحاً »[٥] .

واكثر ما كانت تتخذ الالواح من الخشب المصبوغ بالسواد تغشاها طبقة من الشمع ليسهل الكتابة عليها ونحوها ولعلها اصطُنعت ايضاً من الحجر اللذين

١) نسمات الاسحار في نبذ من كرامات الاولياء والاخيار لعطيه بن حسن الملقب بعلوان الحموي رقم ٩٧ و٩٨ من دار الكتب الظاهرية بدمشق طالع خزائن الكتب بدمشق وضواحيها ص ٥٤

٢) معيد النعم ومبيد النقم طبعة ليدن ٨٥–٨٦

٣) مجلة المجمع العربي بدمشق ٢١ : ٤١٩–٤٢٦

٤) لسان العرب ٦ : ٥ وتاج العروس ٣ : ٢٥٢

٥) لسان العرب ٣ : ٤٣١

وبعض المعادن كالرصاص . ولا يبعد كذلك ان تكون اتخذت اخيرًا من الورق المضغوط المصقول بعد انتشار صناعة الورق لخفة حملها في الاكمام وسهولة تجديدها ولكن معظم ما كان يُصطنع منها من صفائح الخشب المسوَّد لرخصها وقدرة احداث المكاتب على اقتنائها وكانوا يتدربون في كل حين على تعلم الكتابة فيها ونسخ ما كان يملى عليهم من آيات القرآن فكانوا لا يفارقونها دائمًا لانتفاعهم بها وتيسر محوها او غسلها حتى ان بعض واقفي المدارس من الوزراء والاغنياء كانوا يشترطون على الايتام صب مياه غسل الالواح على قبورهم تزلفًا وتبركًا بما خُطّ عليها من آيات القرآن . قال صلاح الدين الصفدي في تاريخه :

حكى لي القاضي شهاب الدين بن فضل الله رحمه الله تعالى قال : اجتزت بتربة الصاحب تاج الدين بن حنّا المصري فرأيت الى جانبها مكتبًا للايتام وهم يكتبون القرآن في الواحهم فاذا ارادوا مسحها غسلوا الالواح وسكبوا ذلك على قبره فسألت عن ذلك فقيل لي هذا شرط الواقف »[1] .

ولهذا السبب اي كتابة القرآن على الالواح اشترط الفقهاء شروطًا لغسلها قال ابن الحاج المالكي :

« ينبغي للمؤدب بل يجب عليه ان يكون لمسح الالواح موضع طاهر مصان نظيف لا يُمشى فيه بالاقدام ثم مع ذلك يأخذ الماء الذي يجتمع من المسح فيحفر له في مكان طاهر مصان عن ان يطأه قدم ويجعل فيه او يلقي في البحر او البئر وكذلك الماء الذي يغسل به الخرق بعد المسح يجعل في موضع بحيث لا يُمتهن ويشترط في الخرق التي يمسح بها الالواح ان تكون طاهرة وان يكون الماء الذي تُبلّ منه حين يمسح به طاهرًا والافضل ان يكون الماء غير مستعمل وان امكنه ان يكون حلوًا فهو اولى لان من الناس من يشربه للاستشفاء به فاذا كان أُجاجًا امتنع عليه ذلك او تنغّص بشربه »[2] .

وكان يقال لهذه الخرقة التي يمسح بها اللوح «الطلّاسة»[3] من طلس الكتابة اذا ازالها ومحاها[4] وكان لهم اداة اخرى يقال لها المِنجل اقتصروا في تعريفها على انها شيء تمحى به الواح الصبيان[5] دون اقل بيان كعادتهم كثيرًا في تفسير

١) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ٢ : ١٩٢

٢) المدخل ٢ : ١٦٥–١٦٦

٣) تاج العروس ٤ : ١٧٩

٤) تاج العروس ٤ : ١٧٨

٥) تاج العروس ٨ : ١٣٨

الفاظ الحضارة واستدرك في تاج العروس « انجل الصبي لوحه اذا محاه »[١] .

واكثر ما كان يكتب في الالواح باقلام الجص والطباشير وقد اشار كشاجم اليها في شعر له سيجي. فقال : « وقلم مداده تراب » وذكر ايضاً البشاري المقدسي اتربة اخرى في كلامه على تجارات فارس فقال : وبيينز (من نواحي شيراز) معادن حديد وطين ابيض يكتب به الصبيان الواحهم وطين اسود للختم »[٢] وكان لهم قلم من حديد يكتب به لا شك فوق الشمع يقال له الملمول[٣] ولكن اقلام التراب كانت اكثر انتشاراً واوفر استعمالاً لقرب متناولها في كل مكان وتزازة قيمتها واشراق بياضها على سواد الالواح[٤] وقد تقدم ان من انواع الخشب التي تعمل منها الواح الصبيان وطلاب الحديث الساج[٥] لرزانته وقلة بلائه وكان لارباب الثراء والمتأنقات من النساء الواح خاصة من الآبنوس لجماله وسواده ونصوع الكتابة فيه ومنه الواح كانت لمحمد بن بشير احد شعراء كتاب الاغاني تناط بسَيْر احمر يكتب فيها بالليل « زانها صفّان من صدف » اخذها منه قُثَم بن جعفر بن سليمان احد عشرائه فقال ابن بشير متلهفاً عليها :

أبقت الالواح اذ أخذت ... حرقة في القلب تضطرم
زانها فصّان من صدف ... واحمرار السير والقلم
وتولى اخذها قُثَمُ ... لا تولى نفعها قُثَمُ[٦]

ثم ندب فقدها في ابيات أخر وصف فيها كل ما اجتمع فيها من المنافع والمرافق فقال :

ابنوس دهماء حالكة اللو ... ن لباب من اللطاف الملاح
ذات نفع خفيفة القدر والمحـ ... ـل محكوكة الذرى والنواحي
وسريع جفوفها ان محاها ... عنه محل مستعجل القوم ماح

١) تاج العروس ٨ : ١٣٩
٢) احسن التقاسيم ٤٤٣
٣) القاموس المحيط للفيروز ابادي ٤ : ٥٢ وتاج العروس ٨ : ١٢٠
٤) كتاب البلدان لابن الفقيه ٥٤
٥) تاج العروس ٢ : ٢٥٣
٦) الاغاني ١٣ : ١٣٩

هي كانت عمدتي وعلى الآ — داب والفقه عُدّتي وصلاحي
كنت اغدو بها على طالب العلم اذا ما غدوت كل صباح
هي كانت غداء زَوْري اذا زا — رَ وريّ الندم يوم اصطباحي
آب عمري وغاب يسري وجودي — حين غابت وغاب عني سماحي[1]

وفي البيت السادس معنى فسره ابو الفرج الاصبهاني بقوله : « يعني انه يعمل فيها الشعر ويطلب لزواره المأكول والمشروب »[1]. واذا أُخذ هذا البيت على ظاهره فهل يستفاد منه ان ابن بشير كان اذا اراد ان يبتاع شيئاً من البقال او الطباخ او الخمار كان يكتفي لقلة ما لديه من القرطاس او لارتفاع اثمانه ان يبعث اليهم بالواحه كالرقعة يطلب بالشعر ما يريد . واذا صح هذا الظن يكون من اظرف مُلَح الالواح واغرب فوائدها في تاريخ الحضارة العباسية .

ويتضح من اوصاف ابن بشير واتفاق كل الاخبار ان الالواح كانت عمدة الشعراء في تدوين بنات افكارهم وعدّة كل كاتب وراوٍ وطالب للحديث والعلم . «احدث الاصمعي عن عيسى بن عمر قال : كنا نمشي مع الحسن ومعنا عبدالله بن ابي اسحق فقال الحسن : جاذبوا هذه النفوس فانها طُلَعَة فاخرج عبدالله بن ابي اسحق الواحه فكتبها وقال : استفدنا منك يا ابا سعيد «طلعة»[2] وروي عن ابي عبيدة انه قال : « اختلفت الى يونس اربعين سنة املأ كل يوم الواحي من حفظه »[3] . ولما اراد جرير ان يردّ على احد منا قضية « اقبل الى منزله وقال للحسين راويته : زدْ في دهن سراجك الليلة واعدد الواحك ودواة »[4] .

وكانوا اكثر ما يستعينون بهذه الالواح للكتابة العاجلة ثم ينقلون ما فيها الى الدفاتر كما جاء في ترجمة كيسان بن المعرف النحوي ابي سليمان الهجيمي قالوا : كان يخرج الى الاعراب فينشدونا فيكتب في الواحه ما ينشدونا وينقل من الواحه الى الدفاتر[5] ولذلك قال احد الشعراء :

١) الاغاني ١٣ : ١٣٩
٢) الفهرست لابن النديم ٦٣
٣) ارشاد الاريب ٧ : ٢١٠
٤) نقائض جرير والفرزدق طبعة بيڤان ليدن ١ : ٤٣٠
٥) ارشاد الاريب ٦ : ٢١٥

يا ايها الطالب الآداب مبتدرًا لا تنسَ عن حملك الالواح للادب
فحملها ادب تحوي به ادباً وسوف تنقل ما فيها الى الكتب
وليس كل وقت ممكناً قلم ودفتر يا عديم المثل في الحسب[1]

وفي خبر سعد الوراق والغلام المترهب عيسى قال الشاعر ابو بكر الصنوبري: عبرت يوماً انا والمعوج الشامي من بستان بتنا فيه فرأينا سعداً الوراق جالساً في ظل الدير وهو عريان فعذلناه وعنفناه فقال: دعاني من هذا الوسواس ثم التفت الي وقال: يا صنوبري فقلت نعم قال: اكتب...[2]

ومما سبق يتبين ان الالواح كانت لا تفارق كمّ كل اديب ومتعلم وكاتب وكانت الدواوين السلطانية نفسها لا تخلو من هذه الالواح يستعين بها بعض العمال والموكلين لتقييد الشوارد والطوارئ وهو ما يؤخذ من قول الشافعي: دخلت العراق في خلافة هرون الرشيد فعند دخول الباب تعلق بي غلام فلاطفني وقال: ما اسمك فقلت محمد فقال ابن من قلت: ادريس الشافعي فقال: مطلبي؟ فقلت اجل. فكتب ذلك في لوح كان في كمه وخلّى سبيلي»[3].

ومن اغرب ما بلغ اليه رواج الالواح وانتشارها في كل الطبقات انه كان اذا ولد مولود يوضع عند رأسه لوح ودواة وقلم، وهو ما ذكره ابن الحاج قال:

« ينبغي ان يُحترز مما احرزه بعضهن في ليلة السابع وهو ان يكون عند رأس المولود الختمة واللوح والدواة والقلم ورغيف من الخبز وقطعة سكر ان كان مقلًا ومن كانت له سعة عمل رغيفاً كبيراً من الكماج وأبلوجة من السكر وطبقاً من الفاكهة وقفة من النقل وشمعاً ومن كان فقيراً اخذ من كل واحد شيئاً ما فاذا كانت صبيحة تلك الليلة فرّقن كل ما اجتمع عند رأسه من ذلك ويزعمن انه بركة »[4]

وكان صانع الالواح وبائعها يسمى الالواحي وممن عُرف بهذا اللقب محمد ابن علي بن المنتخب المحب بن العلاء ابن الشمس الحلبي ... يعرف جده بالالواحي لعملها[5]

١) المحاسن والمساوئ للبيهقي ١: ١١
٢) الديارات النصرانية في ديار الاسلام لنا ٨٢
٣) ثمرات الاوراق لابن حجة ١٧٣
٤) المدخل ٣: ٥٥-٥٦
٥) الضوء اللامع لاهل القرن التاسع لشمس الدين السخاوي ٨: ٢١٠

وفي الالواح كانت تنقش بعض المراسيم السلطانية وتعلق على ابواب الجوامع فتشيع وتشتهر ولما خط نظام الملك بعض الاعباء الثقيلة « امر ان يُنشأ في هذا المعنى مثال وينسخ منه نسخ تقرأ في الجوامع وبالاطراف على رؤوس المنابر وفي صدور المحافل والمحاضر وبان ينقش كتبةً في الالواح تُسمّر على كل باب جامع ومشطاح يتأملها البلدي والغريب ويتسامع به البعيد والقريب »[1]

وكان في المغرب مثل هذا الاعتياد للالواح بين العامة والخاصة والامراء والملوك وفي الاخبار المروية عن ابي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن امير المعامدة الموحدين قالوا « لما تجهز امير المؤمنين الى غزو الروم امر العلماء ان يجمعوا احاديث الجهاد تُملى على الموحدين ليدرسوها وهكذا جرت عادتهم الى اليوم فجمع العلماء ذلك وجاؤوا به اليه فكان يمليه على الناس بنفسه فكان كل واحد من الموحدين والسادة يجيء بلوح يكتب فيه الاملاء. فجاء هلال (بن محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش) يوماً ولا لوح معه فاخرج القوم الواحهم فقال له الوزير : اين لوحك يا ابا القمر (وكانت كنيتهُ) فخجل وافتتح يعتذر. فاخرج له امير المؤمنين من تحت برنسه لوحاً وناوله اياه وقال: هذا لوحه. فلما كان من الغد جاء ومعه لوح غير الذي دفعه له امير المؤمنين فلما نظر اليه قال له : اين لوحك بالامس يا ابا القمر فقال : خبأته واوصيت اذا متُّ ان يجعل بين جلدي وكفني »[2] .

ومن افضل ما وصفت به الالواح ابيات لكشاجم الشاعر المعروف قالها في الواح آبنوس وهي كما جاءت في ديوانه المطبوع :

نعم المعين على الآداب والحِكَم	صحائف حُلْكُ الالوان كالظُلَم
لا تستمد مداداً غير صبغتها	فمرّ ذي اللب فيها جد مكتتم
جلّت وحقّت ثم بدنس لحاملها	ثوب ولم يخشَ منها نبوة القلم
وامكن المحو فيها الكف فانتسخت	لما نُضّين من نثر ومنتظم
حلّيتها بلجين وانتخبت لها	وقاية من ذكي العود لا الأدم
فالكم يبقى منها حين تُودَعه	عرفاً تُنسَم منها الطيب بالنسم
لو كنّ الواح موسى حين اغضبه	هرون لم يُلقها خوفاً من الندم[3]

1) محاسن اصفهان للمفضل بن سعد بن الحسين المافروخي طبعة طهران ص ١٠٢–١٠٤

2) المعجب في تلخيص اخبار المغرب للمراكشي ١٨٣

3) ديوانه المطبوع في بيروت ١٦٨

ويستدل من هذا الوصف ان الواح كشاجم كانت محلاة بالفضة خليقة باشعاره الذهبية وكان لها صوان من العود الذكي تحفظ فيه حتى اذا وضعت في الكم اكسبته طيباً وانتشرت منها ومنه رائحة العود وهو نهاية في التنوق والترف.

ويظهر انه كان من الالواح نوع يقال له لوح الهندسة او تخت الحساب لا ندري من وصفه الا قول كشاجم فيه :

وقام مداده تراب في صحف سطورها حساب
يكثر فيه المحو والإضراب من غير ان يسود الكتاب
حتى يبين الحق والصواب وليس اعجام ولا اعراب
فيه ولا شك ولا ارتياب[1]

ومن اوصاف الواح كشاجم وما تقدمها من الاخبار والملح يتضح لكل بصير ما كان لصناعة الالواح وترويقها وتجارتها في الشرق العربي من الشأن والشهرة والرواج بين كل الطبقات والاقوام من الاحداث والرجال والنساء. فكان لا يخلو منها منزل ولا حانوت فضلاً عن المكاتب والمدارس ولا تكاد تفارق فراش المحدث والشاعر ويد السامع والسائر واليها كان يرجع حفظ الطالب وقلم الكاتب والمحاسب فكان قسطها في خدمة الدين والعلم والحضارة يفوق غالباً قسط الكواغد والجلود والرقوق لرخص الالواح وغلاء الصحف ولم يترفع الملوك والامراء انفسهم عن حملها احياناً تحت برانسهم كما مرّ بنا آنفاً . على اننا لسوء الحظ لم نوفق للعثور على اقل اشارة اليها بين اولاد الخلفاء العباسيين فلا ندري هل تأبطها ابن المعتز مثلاً ولم يومئ اليها مرة في شعره ولم يرو لها ذكر في جملة ما كان يجهزه خدم القصر من ادوات الكتابة لاولاد الرشيد حين كان يؤدبهم الاحمر[2] خلافاً لابناء المروانيين في الاندلس فان الصبي منهم كان يتردد كل يوم بلوحه ليتمرن على الكتابة فيه بانامله الرخصة حتى اذا تدرج الى بعض الاجادة في التقليد والرسم تطير البشائر بحذقه وتقام من اجله الافراح. ولما نشأ لابي الاصبغ عبد العزيز بن الناصر ولد دخل الكتابة وكتب اول

١) محاضرات الراغب ١ : ٥٤ وديوان كشاجم المخطوط في ملك الدكتور سامي الدهان .

٢) ارشاد الاريب لياقوت ٥ : ١١٠

لوح فيه بعث ابو الاصبغ بلوحه الى اخيه الحاكم المستنصر ملك الاندلس وكتب معه :

هاك يا مولاي خطاً ... خطه في اللوح معا
ابن سبع في سنيه ... لم يطق اللوح ضغطا
دمت يا مولاي حتى ... يلد ابن ابنك سبطا[1]

٨ ــ الجلود

كان اكثر كتابة العرب وملوكهم في الجاهلية وبدء الاسلام في الجلود ويقال للمدبوغة منها الأدم ومنها كانت صحيفة المتلمس التي يضرب بها المثل . واكثر ما كانت هذه الأدم من جلود الابل لوفرة ما كان يُنحر منها للطعام وقرى الاضياف وبها كان معظم اتجارهم في الاسواق وفي ما جاور من البلاد واشتهر بها في الجاهلية ابو سفيان والد معاوية وعمرو بن العاص « قيل كان عمرو بن العاص تاجرًا في الجاهلية وكان يختلف بتجارته الى مصر وهي الأدم والعطر»[2] وربما قام ببيع الأدم في الاسواق بعض النساء. كالحرمية التي ذكرها النابغة الذبياني بقوله :

كادت تساقطني رحلي وميثرتي ... بذي المجاز ولم تحسس به نعما
من قول حرمية قالت وقد ظعنوا ... هل في مخفيكم من يشتري أدما[3]

واشتهر اليمن خصوصاً بوفرة الأدم فيه حتى كانوا يكنون بها عن الدراهم فيقال : « ليس بين الدراهم والأدم مثله ». يريدون بين العراق واليمن لان تبايع أهلهما كان بالدراهم والأدم قال اوس بن حجر :

وما عدلت نفسي بنفسك سيدًا ... سمعت به بين الدراهم والأدم[4]

قال الاصطخري: « في صعدة يتخذ ما كان يتخذ بصنعاء. من الأدم ويتخذ بنجران وجرش والطائف أدم كثير غير ان اكثر ذلك يرتفع من صعدة وبها

١) نفح الطيب للمقري ٣ : ٣٢٣
٢) كتاب الولاة وكتاب القضاة لابي عمر الكندي ٦-٧
٣) شعراء النصرانية ٦ : ٧٠٧
٤) اساس البلاغة للزمخشري طبعة الدار ١ : ٧

مجتمع التجار والاموال »[1] . وقال البشاري المقدسي : « صعدة اصغر من صنعاء عامرة في الجبال بهـا تصنع الركاء الجيدة والانطاع الحسنة ومنها يرتفع أدم جيد... ونجران مثل جرش وهما دون صعدة واكثر مـا يرى من الأدم في هذه المدن »[2] .

وكانوا يكتبون ايضاً في جلود الغنم والمعزى والحُمُر وسائر الدواب الاهلية والوحشية وفي جلود الظباء. وفيها كتبت مصاحف القرآن والتوراة ايضاً[3]. ويظهر ان جلد الحمر كان يسمى الفلجان ولم نجد هذه اللفظة في معجمات اللغة ذكرها ابن النديم في قوله : « ان الفرس كانت تكتب في جلود الجواميس والبقر والغنم وان الروم تكتب ايضاً في الفلجان وهو جلود الحمر الوحشية »[4]. وذكر ايضاً انه اجتمع في مدينة الحديثة برجل يقال له محمد بن الحسين ويعرف بابن ابي بقرة جماعة للكتب له خزانة قال : لم ارَ لاحد مثلها كثرة... فاخرج لي قمطراً كبيراً فيه نحو ثلثمائة رطل جلود فلجان وصكاك وقرطـاس مصر وورق صيني وورق تهامي وجلود وأدم وورق خراساني فيها تعليقات عن العرب »[5].

ومن شواهد الكتابة في جلود الماعز كتاب الجفر المشهور الذي ذكره ابو العلاء بقوله :

لقد عجبوا لاهل البيت لما أتاهم علمهم في مَسك جفر

« والمسك هو الجلد والجفر ما بلغ من الماعز اربعة اشهر وجَفَر جنباه وانفصل عن أمه »[6]

ومن اغرب ما كتب فيه جلد الخف خف علي بن ابي طالب قبل خلافته. قالوا ان الكتاب الذي كتبه الرسول لتميم الداري واخوته في سنة تسع من الهجرة مُنصرفه من غزوة تبوك كتبه علي بخطه في قطعة من أدم من خفه[7].

وكانت الجلود البيض تفضل للكتابة لظهور سواد الحبر عليها ويقال لها

---

١) مسالك الممالك ٢٦
٢) احسن التقاسيم ٨٧
٣) تاريخ الهند للبيروني ٨١
٤) الفهرست طبعة القاهرة ٣١
٥) الفهرست ٦٠-٦١
٦) وفيات الاعيان ١ : ٢٩١-٢٩٢
٧) مسالك الابصار للعمري ١ : ١٧٣

القُضم جمع قضيم وفي حديث الزهري: «قُبض رسول الله (صلعم) والقرآن في العسب والقضم»[1]. ومن شواهد الكتابة على الجلود والحمر: «ان اسقف نجران اتى عليا ومعه كتاب في اديم احمر قال: اسألك يا امير المؤمنين خط يدك وشفاعة لسانك» يعني لما رددتنا الى بلادنا قال فابى علي ان يردهم»[2].

ولا حاجة الى القول ان الكتابة على الجلود قبل ان تعرف الدباغة الكوفية كانت تصعب جدًا ولا شك ان الجلود كانت تُصقل قبلًا ليهون مرّ القلم عليها ويسرع الخط فيها. ومن الادلة على ذلك ما حدّث به محمد بن الجهم السري قال: «كنا اذا اتينا الاحمر – مؤدب اولاد الرشيد – تلقانا الخدم فندخل قصرًا من قصور الملوك... ويدفع الينا دفاتر الكاغد والجلود قد صقلت والمحابر المخروطة والاقلام والسكاكين»[3]. ولعلها كانت تصقل ايضًا وتباع كذلك في حوانيت الجزارين ليتمكن المشتري من الكتابة عليها حالًا دون انتظار لصقلها. ومما يدل على ذلك ما روي عن سعيد بن العاص قال ابن عساكر:

«اتى عمرو بن سعيد بن العاص فتى من قريش يذكر حقًا له في كراع اديم بشرين الف درهم على سعيد بن العاص بخط مولى لسعيد كان يقوم لسعيد على بعض نفقاته وبشهادة سعيد على نفسه بخط سعيد فعرف خط المولى وخط ابيه وانكر ان يكون للفتى وهو صعلوك من قريش هذا المال فأرسل الى مولى ابيه فدفع اليه الصك فلما قرأه المولى بكى ثم قال: نعم أعرف هذا الصك وهو حق. دعاني مولاي فقال لي – وهذا الفتى عنده على بابه معه هذه القطعة الاديم – اكتب. فكتبت باملائه هذا الحق. فقال عمرو للفتى: ما سبب مالك هذا؟ قال: رأيته وهو معزول يمشي وحده فمشيت معه حتى بلغ داره ثم وقف فقال: هل لك من حاجة فقلت: لا. الا اني رأيتك تمشي وحدك فأحببت ان أصل جناحك فقال: وصلتك رحم يا ابن أخي وقال: إبغني قطعة اديم فاتيت جزّارًا عند باب داره فأخذت منه هذه القطعة فدعا مولاي هذا فقال: أكتب فكتب واملى عليه هذا الكتاب وكتب شهادته على نفسه ثم دفعه الي وقال: يا ابن اخي ليس عندنا اليوم شيء فخذ هذا الكتاب فاذا اتانا شيء فأتنا به ان شاء الله فمات رحمه الله قبل ان يأتيه شيء»[4].

واول ما عولجت الجلود بالنسورة وبقيت مع ذلك عاسية لا تخلو من بعض

---

١) لسان العرب ١٥: ٣٨٦

٢) كتاب الخراج لابي يوسف المطبعة السلفية ٨٨

٣) ارشاد الاريب لياقوت ٥: ١١٠

٤) تاريخ ابن عساكر دار الكتب الظاهرية بدمشق ٧: ١٢٦ والبداية والنهاية لابن كثير ٨: ٨٧

الآثارُ المطويّة (تابع)

جمَعَها وعلّق عليها ونَشَرَها

الاب انطونيوس شبلي اللبناني

رئيس الطوش جبيل

بين الشيخ ناصيف اليازجي ونصر الله الطرابلسي الحلبي

كان الشيخ ناصيف اليازجي رجلاً عـالماً شاعراً ، كريم الاخلاق ، محمود الصفات ، موفور المهابة ، رصيناً رزيناً ، أبياً وفياً لاصدقائه ومعارفه ، متواضعاً خفيض الجانب ليّن الطباع . قد طارت شهرة علمه وفضله في الاقطار الشرقيّة والغربيّة ، وراسله الادباء والشعراء من كل طبقة ومذهب ، وافرغوا عليه حلل المدح والثناء ، فكان يجيبهم على مراسلاتهم نثرًا بنثر وشعرًا بشعر . وكثيرًا ما كانت تختلج في صدره عاطفة طيّبة رقيقة نحو اصدقائه الذين حالت بينه وبينهم شقّة البعاد ، فيشتاقهم ويحنّ اليهم ويحدب عليهم ، ويئن لبعادهم ويذكر عهد ودادهم فيهيجه الشوق الى لقائهم ، فلا يستطيع اذ ذاك ضبط شواعره ، فيهبّ القلم الى الدواة والقرطاس متهادياً بين أناملهِ ، ينشر ما انطوى في قرارة نفسه من لاعج الوجد ، ويندفع بما احتوى من كَلِم الثناء والحمد ، دليلًا على صدق وعوده وعهوده . تلك عاطفة وفاء واخلاص كانت متجسّمة في قلب هذا الشيخ الكبير .

وقد عثرنا له على رسالة خطيّة من نثر وشعر لم تُطبع في كتاب مراسلاته[1] ، أنفذها الى صديقه الاديب الشاعر نصر الله الطرابلسي الحلبي[2] جواباً على رسالته اليه .

---

١) « فاكهة الندماء ، في مراسلة الأُدباء » . الشيخ ناصيف اليازجي ، طُبعت بنفقة المكتبة المصرية لعزيز زند ، في ٩٣ صفحة .

٢) عليك بما كتبهُ عنهُ الاب لويس شيخو في (المشرق ٣ [١٩٠٠] : ٣٩٧ – ٤٠٩) وقسطاكي بك الحمصي في (مجلّة الشعلة الحلبيّة لصاحبها فتح الله قسطون ، في سنتها الثانية ، العدد الاول ، آب سنة ١٩٣١ ، ص ٥٨)

في خزانة كتب دير الشير بَكَين (سوق الغرب) المحتوية نفائس المخطوطات والمطبوعات ، كتاب خطيّ تحت رقم ١٣٣ عدد ٤٦ ، مخروم من اوله وآخره ، شبيه « بجراب الكردي » الجامع لكلّ شيء ، يقع في ٥٤٨ صفحة ، منسوخ بخط عربي غير جيّد على ورق عادي مائل الى الرقة ، وبالحبر الاسود . اما عناوينه فبالحبر الاحمر ، مجلّد بجلد اسود قديم ، سقطت من آخره بعض ورقات فضاع معها اسم ناسخه . طول هذا المخطوط ٢١ سنتمترًا ، وعرضه ١٤ سنتمترًا ، وعرض هامشه سنتمتران . يبتدئ هذا المخطوط بخالية المعلّم بطرس كرامة، وجواب احد المسلمين عليها بقصيدة[1] . ثم قصيدة لكرامة ، مطلعها :

للمرء في حادثات الدهر آمالُ   وللنوائب إقدامٌ وإجفالُ

الى صفحة ١٣ ثم يأتي كتاب « الراهب المشتاق » وهو ناقص من آخره ، ترجمة القس يوسف بن جرجس الباني الحلبي ، الى ص١٠٦ ، فالمقالة الاولى الدُرّيّة في عيد الافخارستيّا من ص١٠٨ الى ١١٩ ، فكُتيّب في انهدام الديانة العبرانية ، ينتهي في صفحة ١٤٤ ، فنبذة في تاريخ طائفة الروم الكاثوليكية الملكية وذكر الحوادث التي جرت بينها وبين طائفة الروم الارثوذكسية ، من اوائل شهر آب سنة ١٨٣٧ ، الى ص ٢٨٦[2] ، فاشعار مما يلزم الانسان في بعض الاوقات لصروف الازمان ، فقصائد للشيخ عمر الفارضي منها تخميس خمريته :

شربنا على ذكر الحبيب مدامةً   سكرنا بها من قبل ان يخلق الكَرْمُ

فأبيات في النساء صفحة ٣٠٧ . قال الشاعر :

لئن تسألوني بالنساء فإنّني   عليمٌ بأدواء النساء وطبيبُ
اذا شاب رأسُ المرء أو قلّ مالُهُ   فليس له في ودّهنّ نصيبُ

وقال غيره :

إنّ النساء وإن عُرفنَ بمنّةٍ   جيفٌ تدبُّ بها الذبابُ الحُوَّمُ
اليوم عندك مرُّها وحديثُها   وغدًا لغيرك كفُّها والمعصم

---

١) طالعها في « قطرة طوامير » للكونت الشيخ رشيد الدحداح . طبعة باريس سنة ١٨٨٠ ، في ٩٤ صفحة ، بقطع كبير .

٢) قد نشرها الخوري قسطنطين الباشا المخلّصي تحت عنوان « نبذة تاريخية » سنة ١٩٠٧ في ٣٥٧ صفحة بقطع ربع .

كالماءِ تنزلهُ وتصبحُ راحلا وبحلُّ بعدك فيهِ مَن لا نعلمُ
فاحذرْ من الأنثى ولا تركنْ لها ولو أنّها قالت ، انا هيَ مريمُ

وقال غيره في العلم :

سمعتُ يوماً مثلاً سائرا فكنتُ بالشعر لهُ ناظما
لا خيرَ في المرء اذا لم يكن لا طالباً علماً ولا عالما

فأشعار لبعضهم متفرّقة ، كصفيّ الدين الحلّيّ ، والحريريّ ، ويزيد بن معاوية ، الى ص٣١٢ ، فتخميس قصيدة الفارضي :

زدني بفرط الحبّ فيك تحيّرا وارحمْ حشاً بلظى هواك تسعّرا (١

بدون ذكر اسم المخمّس ، فتخميس القصيدة التي بدؤها :

ألا يا ليلُ هل لك من صباحِ وهل لمسير نجمك من براحِ

ص ٣١٩ ، فقصيدة زجل اوّلها :

في بحار الحسن محبوبي سبَحْ وتلالا بلبس اثواب الجمال

فزجلية لميخائيل بن عبّود البحري ، يرثي بها الراهب الخوري يواكيم ، فزجلية ايضاً في فائدة العلم ونقص الجهل ، فأخرى في مدح القربان الاقدس ، فقصيدة خمريّة ص٣٢٨ ، في ثلاثة عشر بيتاً ، مطلعها :

قُمْ أختطفها لانّ العمر يختطفُ صهباء يقدحُ منها النزّ والشرف

فقصائد للفارضي ايضاً ، « فقصائد تُدعى بمشرات الفازاني المغربي منظومة على حروف المعجم محبوكات الطرفين لا نظير لها » ، تبتدئ في صفحة ٣٣٢ ، وتنتهي في ص٣٤٦ ، فخمريّة فتح الله بن النحاصر في ثلاثة وعشرين بيتاً ، بدؤها :

سلبوا الغصونَ معاطفاً وقدودا ونفاسوا وردَ الرياضِ خدودا

فقصيدة لشاكر الحلبي يمدح بها الشيخ عبد الغني النابلسي . وقد صدّرها بهذا البيت :

من لي بكوكب عرفانٍ وبدر وفا بسمدهِ شرفٌ قد جاوز الشرفا

---

١) قد وقفنا على تخميس عدّة شعراء لهذه القصيدة ، ونحن قد خمّسناها اذ كنا ندرس المعاني والبيان ، ونالت استحسان استاذنا العلّامة الاب نعمة الله ابو ناضر (شاكر ابو ناضر قبلًا) .

ومطلعها :

آيات حقٍّ جميع الحسن تاليها ترهو ونجم الهنا بالحمد تاليها

وتنتهي في صفحة ٣٥٣[1] ، فقصائد ايضاً للفارضي الى ص٣٧٦ ، فقصيدة للشيخ عبد الغني النابلسي يمدح بها نفسه ، أولها :

وجودي جلَّ عن جسمي وعن روحي وعن عقلي

وجواب الشيخ احمد بن الحرّ المتوالي (الشيعي) عليها بقصيدة[2]، فقصائد أخرى للفارضي الى ص٣٩٨ ، فقصائد عديدة متتابعة للشيخ ناصيف اليازجي ، منها مطبوعة ومنها غير معروفة سننشرها . وأولى قصائده في هذا المخطوط ، قصيدته في الدولة المصريَّة ، وهي معنونة هكذا :

« قصيدة للشيخ ناصيف اليازجي على الدولة المصرية » مطلعها :

يا فاتحَ القطرين انت محمَّدُ هل دون فتحك في البلاد مسدَّدُ

وتبتدئ قصائد وتواريخ الشيخ ناصيف في صفحة ٣٩٩ ، وتنتهي في ص ٤٩٨ الخ . وفي اواخر هذا المخطوط نبذة من اشعار عنترة العبسي بخط مختلف من صفحة ٥٠٠ الى ٥٤٨ . وان كثيراً من اشعار هذا الكتاب قد افسدها الناسخ بجهله ، فاختلّ وزنها .

ج

وفي صفحة ٤٧٦ من هذا المخطوط ، رسالة نثرية شعريَّة ، للشيخ ناصيف اليازجي ، بعث بها الى صديقه الشاعر نصرالله الطرابلسي في مصر ، جواباً له على رسالته اليه . وهي معنونة هكذا :

« وله (للشيخ ناصيف) رسالة بعث بها الى المعلّم نصرالله الطرابلسي الحلبي الى مصر القاهرة »

واليك نصّ هذه الرسالة بحرفه الواحد :

١) عليك بها في تاريخ الامير حيدر الشهابي ، القسم الاول ص ٣٤

٢) راجعها في تاريخ الامير حيدر احمد الشهابي « لبنان في عهد الامراء الشهابيين » في حوادث سنة ١٧٢٣ ، ص ١٨، القسم الاول ، طبعة اسد رستم وفؤاد افرام البستاني . المطبعة الكاثوليكية — بيروت ، ١٩٣٣ . وطالع مقال فؤاد افرام البستاني : « الشيخ عبد الغني النابلسي والشيخ احمد الحرّ » (المشرق ٤٥ [١٩٥١] : ٧١)

رسالة للشيخ ناصيف اليازجي بعث بها الى المعلم نصر الله الطرابلسي الحلبي

فتح الله لك ، يا شقيق الروح بالحسنى ، وختم لحبك بالقربى[١] .

فقد بلغ الشوق الأمد ، وغلب على الكبد الكمد ، ولعمري ان شكوى المحبّ المهجور ، لعجمة توسوس في الصدور . وكيف استيفاء ما لا يزال كل يوم في مزيد ، ويردف مفردات العتيق[٢] بجُمَل الجديد . فوأبيك ما كتبتُ مما مضى سطرا ، الا اتى الحال بمثله شفعاً ووترا .

ثم ان لمن اعجب الغرائب ، وأغرب العجائب ، غيابك في شخص حاضر ، وحضورك في شخص غائب . تُقرّبك الاشواق ، وتنأى بك الآفاق ، فأنت اقرب من حبل الوريد الى النُهى ، وأبعد عن العين من السُهى . ولله درّ القائل :

يا بعيد الدار موصو م لا بقلبي ولساني
طالما أبعدك الدهر م فأدتك الأماني

هذا ولم يزل الضمير متصلاً بأفعال الشك واليقين بين الاماني والذكرى ، تقلّبه عوامل الوجد والحنين ولا يجد وقاية ولا سترا ، لا ينصرف عن الصبابة والغُلل[٣] ، وكيف وقد اطبق عليه لفيفٌ مقرونٌ من العِلَل ، يستطرد من شكوى ثنائك ، الى شكر أياديك ، ويستتبع ذكر ألطافك بتمنّي ائتلافك . فهو بين الخبر والانشاء ، كالنصب بين الافعال والاسماء ، وتردّد ذكرك فيه كالمبني في الكلام ، او الارواح في الاجسام .

ثمّ ان ثمّ لقلباً انْ هو الا نقطةٌ في مركز الاشجان ، تدور به خطوط ممتدة تستغرق الزوايا والاركان . قد كأنه موسى القطيعة والفراق ، ولا بدع فهو ربُّ البلابل والاشواق ، المتجلّى على طور الصبابة بالإحراق والإبراق ، وأذابت ما كان من جوامده البارده ، حرارةُ الصُعَداء[٤] الصاعده . وناهيك ما

١) بديع . (في الاصل) . يبينُ ان الشيخ ناصيف اليازجي ، قد علّق تفاسير بعض كلمات وردت في رسالته هذه وفي قصائده المدوّنة في المخطوط الذي نحن في صدده ، فنقلها الناسخ بالحبر الاحمر على الحاشي وقد اشرنا اليها بكلمة « في الاصل » .

٢) نحو (في الاصل) .

٣) الغُلّة : العطش الشديد ج غُلَل .

٤) الصُعَداء : التنفّس الطويل من همّ او تعب .

هنالك من الشأن المغني خبره عن العيان ، وتقليده عن البرهان ، وليت شعري كيف يكون قلب صبٍّ أتلفه الهجر ، فكان احسن ما تناوله الصبر .

تقول لي كيف اصبحت. كيف يُصبح مثلي وقد ساءت به العَشْرُ المقولات، وخالفت نتائجه المقدَّمات ، فله في كل قياس انعكاس، وفي كل قضيّة خطيّة. اذا ذكر العصر الذي سلف ، كاد يتميّز من الغيظ والاسف . بكاؤه معقّد الازار ، ومنامه طَلَلٌ في وبار ، وسلوه في قبضة الجبّار ، فكأنه القمر ولكن في السرار . حَمَلٌ قد وثب عليه أسد ، فهل له من جَلَد ، قد حالت سعودُه نحوسا ، وخرج شكل نصره الكنيسا[1] ، طالما قام في الليل اذا سجا ، يرصد نجم الدجا ، وكلَّما هبَّ الصبا ، حنَّ لها وصَبا. يجد راحة الارواح ، في مجانبة الراح ، ويرى لذّة العشّاق بالسهاد ، اذا طاب الانفراد للإنشاد. فكأن قوافي الابيات ، أغاريد النغمات ، وفواصل الفِقَر ، ضَرَبات الوتر .

وممّا أنشد قوله :

دموعي ، أقرَّ اللهُ عينَك ، حرَّاءُ ... كأنَّ جفوني وهيَ تنبع رمضاءُ[2]
فللهِ ماءٌ لا يُخفّفهُ اللّظى ... وقهِ نارٌ لا يُبرّدُها الماءُ
أشوقُ الى تلك الليالي وذكرها ... على انّهُ للقلبِ ، واعجباً ، داءُ
وأصحبُ أرواح الخزامى تحيّتي ... ونوقُ السرى عنها طلائح أنضاءُ[3]
اذا لاح برقُ السفحِ أطفأ ناظري ... فواعجباً للنور بالنور إطفاءُ
وأعجبُ ان يأتي رسولاً مسلّماً ... وليس الى ردِّ التحيّةِ إصغاءُ
هو السفحُ اذ يُدعى فلا عَجبٌ إذنْ ... اذا سفحتْ لي عَبْرةٌ فيهِ وطفاءُ
وأعجبُ من قلبي كثيرًا على الهوى ... ومولاهُ نصرُ اللهِ والبيضُ أعداءُ
أيا هاجرًا لسنا نرى لك صورةً ... فأدنى الينا منك هذي الثُريّاءُ
أُعيذك ممّا بي وأعلمُ أنّهُ ... لحبٍّ وما ظنّي بحبّك خطّاءُ
شكوتُ اللقا ، وهو المسبّب فتنتي ... وقد كان لي شكرٌ عليهِ وإثناءُ
فلو طمتْ نفسي قلتُ يا ليتَ لم يكن ... فلولاهُ لم تعلقْ بنفسيَ أهواءُ
بكيتُ فخافت مقلتي طائلَ العمى ... وللدمع فيها طاعةٌ ثمَّ عصياءُ

١) كذا وردت هذه العبارة في الاصل الذي نسخنا عنهُ .
٢) ارض حارّة (في الاصل) .
٣) تعِبة مهزولة (في الاصل) .

ترادَفَ قطرُ الدمع منها قوافيًا … توالت ولكنْ لم يبِنَّ إبطاءُ
كَسَتْ وجنتي ثوبَ احمرارٍ نعافهُ … لانَّ ثياب الحزن لا شكَّ سوداءُ
ولا تحسب المرجانَ دمعي فإنَّهُ … لآلي ثناءٍ عنك في القلبِ بيضاءُ
حبَستُ فمي عن نثرها فتخلَّلتْ … الى مقلتي فاستنفذت وهيَ حمراءُ
أجِلْ نظرًا في حال دمعي وقلْ لهُ … سلامٌ ولا بَرْدٌ وفي النار أحشاءُ
ولا تفتخرْ عُجبًا بلفظك واتئدْ … فكلُّهما غالٍ متى فضَّ وشاءُ
يقولون انَّ الشوق يُسلى على المدى … فقلتُ على المعلوم جاءوا فما ساءوا
يزيدك طولُ الدهر يا شوقُ كثرةً … كأنَّ الذي يأتي بهِ لكَ أجزاءُ

٥

أيا صاحبًا من أجلِ صحبتهِ الضَنى … وقد تلدُ الجسم السقيمَ أصحّاءُ
هجرتَ، ولكنْ لا ملالًا، ولم تزُرْ … وللشوق في طيِّ الترائبِ هيجاءُ
ولكنَّ فعلَ الدهرِ من بعدِ بِلْسِهِ … قد اعتلَّ منهُ اللامُ والعين والفاءُ

٥

اليكَ كما شاءَ الزمانُ رسالةٌ … بها مهجةٌ مشبوبةٌ، ليس إنشاءُ
تكاد تلوحُ النارُ منها لأنَّها … هيَ ابنةُ قلبٍ دونهُ النارُ ريّاءُ
فلو لم يُثقِّلها سلامي وأدمعي … لطارَ بها شوقٌ اليكَ وإغراءُ
ولولا التفاتي نحو طيفكَ عندما … كتبتُ لأصلتْها من الشوقِ صعداءُ
بزعميَ ان تُحدى الرسائلُ بيننا … وما بيننا إلَّا شبابٌ وأنحاءُ
لعارٌ على المشتاقِ إن يُذكر النوى … فقربُ الحِمى وصلٌ وليس أحبّاءُ
وما بيَ وهْنُ الشوقِ لكنْ موانعٌ … يصحُّ اشتغالًا من جراهنَّ إلغاءُ
اذا لمتُ أحشائي بذنبي تقولُ لي … أموتُ وفي قلبي من العذرِ أشياءُ
أسفتُ ولم أتركْ مجالًا وهكذا … على قدَرِ المفقودِ تطرقُ أسواءُ
اذا لم يرزِّني البعدُ عنك فما انا … بمن ساءَهُ بؤسٌ وسرَّتهُ نعماءُ

٥

وقالوا تصبَّرْ واسلُ، قلتُ لهم، نعمْ … سأسلو ولكنْ بالنظيرِ اذا جاءوا
لكلٍّ علينا مستحيلٌ وإنَّما … لنا ولهمْ خلٌّ وفيٌّ وعنقاءُ
تقولُ نساءُ الحيِّ ما بك هل تُرى … هوًى أم جنونٌ، قلتُ، لا ثمَّ إنغاءُ
أترَهْ ما بي أنْ يُسمّى بذا فقد … تُريهِ كما بالقومِ منكنَّ أسماءُ

٥

حبيبيَ مَن يَشفي السقيمَ حديثُهُ … أجلْ، بل غريبي، والروايةُ عجماءُ

وَمَن ضلَّ عن تنبيهِ مَن أرادَهُ ... فتنبيهُهُ أنْ لا يُشبِّهَ روَّاءُ
سكرتُ بهِ يومًا وما زلتُ لا كما ... يُرادف سكرًا من طلاكنَّ إصحاءُ
ولا بدعَ اذا ما يقصرُ الرِجلَ مشربٌ[1] ... ولكنَّ لي من عاصرِ الفكرِ صهباءُ
بنفسي وإنْ لم تأتِ كفوءًا لياليًا ... قصرنَ وطالت بعدها بيَ أدواءُ
سويداءُ من طيبٍ وريحانةٌ بها ... تُسمَّى سوادٌ بأسمها وسويداءُ
ظفرتُ بها حينًا فولَّت فلم تَعُدْ ... فما هيَ إلّا في الحيامينِ إحياءُ
اذا حضرتني صورةٌ عند ذكرها ... تُمثّلُ في غيوبتي كيف إغفاءُ
وفي جانب الأبيات وادٍ عقيقهُ ... دموعي وذكراك النضيرةُ جرعاءُ
كأنيَ في طُرقتِهِ نجمٌ وكلُّ ما ... سوى ذكر أيامِ اللقا في فمي راءُ
اذا مالت الأغصانُ ملتُ فكلُّنا ... بهِ للهوى الجاني هياجٌ فإنثناءُ
أبيتُ بهِ أرعى النجومَ وتستقي ... دموعي ولي نوحٌ طويلٌ وضوضاءُ
فلولا نواحي ما بكتْ فيهِ مزنةٌ ... ولولا بكائي لم تَنُحْ فيهِ ورقاءُ
لقد نقلوا أنَّ العيونَ سواحرٌ ... وما هي إلّا أنفسٌ ليس أعضاءُ
وليس سوى الأنفاسِ في الناس مُسكرًا ... فدعْ عنك دعوى مَن يقولُ الحُبابُ

تبارك مَن انشاكَ من نسلِ آدمٍ ... وآدمُ بعضُ الذاتِ منك وحوَّاءُ
يدلُّ بما يحوي سواك مواهبًا ... وانت لِما تحوي دلالٌ وخيلاءُ
تُصرِّحُ عنك المكرماتُ مبرَّةً ... اذا كان منها نحو غيرك إيماءُ
ويشهدُ نظمُ الشعر أنَّك ربُّهُ ... بمصرٍ ولو قيلَ الحجازُ وعرباءُ
لئن نشزَت عونُ المعاني عن السوى ... فيا طالما طاعتكَ منهنَّ عذراءُ
ولا بدعَ ان جاءتك تنقادُ رغبةً ... وكفُّكَ ياقوتٌ ولفظُكَ لألاءُ
متى جال في طرسٍ يراعُك جاءنا ... ببدرٍ أفادتهُ الهدايةَ ظلماءُ
وَرُبَّ سوادٍ هان لولاه أبيضٌ ... كما جاء في الأحداق أسودُ وضّاءُ
وعندك في علمِ اللغاتِ إحاطةٌ ... كأنَّ الذي يلقاكَ منهنَّ إيحاءُ
فلو كنتَ بين القوم في يومِ بابلٍ ... لَما أشكلت في ألسُنِ القوم عجماءُ
سقى حلبًا صوبُ الحيا بكَ باكرًا ... وما هيَ إلّا روضةٌ بكَ غنّاءُ
ولا بدع أنْ تُهدى المحاسنُ منكما ... فأنت شهابٌ ثاقبٌ وهيَ شهباءُ

هذا وأنا أترجّى إغضاء البصيرة السليمة ، وأتوقّع صفح الرويّة المستقيمة ،

---

[1] كذا في النسخة التي نقلنا عنها .

عمّا فرط بها من العيوب ، وأفرطتُ من الذنوب ، غير قائل : رُبَّ عَقمٍ أقرُّ للعين ، فارجعي بخفّي حُنين . على أنها وان كانت معلّقة ابن حُجَير ، او من حوليّات زُهير ، لم تقف لديك الا موقف الخجَل ، او تجري على ما بها من العلل . قد لَفَقْتُها[1] وانا مطلق العنان ، اتردّد بين كثير من المكان ، وقليل من الزمان .

يوماً بحزوى ويوماً بالعقيق وبالـ م عُذَيبِ يوماً ويوماً بالخُلَيصاء

يتنازعني من الاشتغال فريقٌ فريق ، فاذا ألغي الاعمال تعيّن التعليق . فأنا ذو فؤادٍ مقيَّد ، وشوقٍ مجرَّد ، وقلقٍ متدارك ، وأرقٍ متواتر ، وقلبٍ مشطور ، وجسمٍ منهوك ، ونفسٍ سريع ، ونوحٍ طويل . طالما قطعتُ معارف البيد ، ووصلتُ المتقارب بالمديد[2] ، فكان شخصك نُصبَ عينيَّ ، حاكماً لي وعليَّ ، ففرضي الولاء ، وشَرْطي الوفاء . وقد وهبتُ عيني الدموع ، وحجبتُ غنها الهجوع ، فقد كدت أذوبُ حَيَاً ، او اقضي نحباً . لم أزل أُكفكفُ عبرتها وهي تبين ، فطبا البتنة والبين ، وأتقلّب هائماً بين السحَر والاصيل ، والله خير الشاهد والوكيل .

قد ضربتُ عروضها في صفائح البيضاء ، لا البيداء[3] ، ومددتُ أسبابها بيد قريحتي الشلاء ، فجاءت وأبياتها تكاد تمور من الهيبة والحياء ، حتى اذا كانت على جناح السفر قائلة يا لَشَيْبا ، انتفض الخُبرُ بالخَبَر انك في مصر القاهرة . فوَأيمُ الله انَّ مثلك مَن كان تقلّبه في البلاد ، تبصرةً وذكرى للعباد . وأحرِ بك الى من يُدعى اليه طلّاع الثنايا ، وتُلقى اليه مقاليد الوضع والحَلّ في القضايا . فلقد أحصيتَ العلوم بين الخواتم والفواتح ، وظفرتَ منها بكل سانح وبارح ، واعتصمتَ ببراعاتها فكراً عن الخطأ ، فكنتَ تجري على صراط مستقيم ، وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

---

١) من لَفَقَ الثوبَ لفقاً : ضمَّ شُقّةً منهُ الى أخرى فخاطها .
٢) بحران من أبحُر الشعر .
٣) يُقال : أنبتهُ في بيضاء الغيظ ، اي في صميمه . والبيداء : الفلاة .

ولعمري اني لستُ إلا على جانب الفضول ، بركوبي متن هذه الفصول . فأنا كمن أطمعه الغرور ، بتناول الشمر العبور .

وهيهاتِ هيّاتُ[١] العقيق ومَن بهِ وهيهاتِ خلٌّ بالعقيقِ نُواصلُهْ

وكيف تُحصى او تُحصر بالعدّ والحدّ ، صفاتُ من جَمَعَ الفضائل قائمةً في جوهر شخصه الفرد ، فما أنا إلا كاتبٌ على صفحات الماء ، او حاسبٌ طوالع السماء . بَيْد ان لمّا يتعلّق بالإعراب والاشكال، ان لهجتُ بما بي على صعودك سلّم الكمال ، فكان ذلك كما يقال للآل يا زلال ، وللعُرجون[٢] يا هلال ، فأطرقتُ خجلًا لإجراءي بناديك ذكرًا ، وتذكرتُ ما سبق لي من ابياتِ شعرًا .

أخجلتني فوجمتُ حين مدحتني فكأنّما ذاك المديح هجاءُ

أنا قطرةٌ من فيض بحرك زدتني ماءً فكاد ينيضُ منّي الماءُ

ولكنْ صحّة المودّة تستر السجيّة العليلة،فعين الرضا عن كل عيبٍ كليلة[٣] . ولله درُّك ما أجلَّ فضائلك ، وأرقَّ شمائلك ، وأصحَّ ودادك ، وأبرَّ فؤادك .

فلو صوَّرتَ نفسك لم تزدها على ما فيكَ من كَرَمِ الطباعِ

ولعمري ان مثل هذا الباب ، لمّا يتساوى فيه الايجاز والإطناب. ولَرُبَّ وصلٍ تحسُن في حواشيه الفواصل ، فعند التناهي يقصر المتطاول . غير اني ما أوردتُ من هذه الكلمات ، على قصوري في تأدية العبارات،وضعفي في تأليف المعربات، لا لاستيفاء معانيها وجوه صفاتك ، وبيان أعراضها عن جوهر ذاتك، بل جعلتها حديثًا مُسندًا الى الشوق والغرام ، ومجازًا مرسلًا الى نشر حقائق العهود في طيّ الفؤاد والسلام .

---

١) في الاصل (هيهاتِ) وهي تحريف من الناسخ على ما يظهر لنا ، لان الوزن لا يستقيم مع هيهات .

٢) العُرجون : اصل العِذق الذي يعوجّ ويبقى على النخل يابسًا بعد ان تُقطع عنهُ الشماريخ ج عَراجين .

٣) هو صدر بيتٍ من الشعر :

وعين الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ كما أنَّ عينَ السخطِ تُبدي المساويا

هجونك ثم أهجو ثم أهجو

قصيدتان في الهجاء من نظم الشيخ ناصيف اليازجي

ان اوّل من ترجم الشيخ ناصيف اليازجي على ما نعلم ، هو الطبيب سليم دياب الطرابلسي ، تلميذه وصديقه ونديمه وطبيبه في مرضه الاخير[١]. وممّا رواه دياب عنه انه « لم يُسمع له كلمة بذيئة قط في حديث ولا كتابة ، ولا هجا احدًا ولو هُجي ، ولا طعن في عرض أحد[٢]... » وكل من كتب عن الشيخ ناصيف رجع الى ترجمة دياب اولًا واقتبس منها ونقل عنها هذا الخبر الذي اجمع عليه جميع مؤرخي حياة اليازجي[٣]، حتى ان الشيخ فارس الشدياق صاحب جريدة « الجوائب » في الاستانة ومحرّرها ، ذكر هذه الميزة في رثائه الشيخ ناصيف فقال :

ما كان يهجو ولا يُهجى ولا حَجَبَتْ ذكا قريحتِهِ أحلاكُ حدثانِ
كانت أسِرَّتُهُ عنوانَ نيَّتِهِ على المصافاة في سرٍّ واعلانِ[٤]

وصدّق على كلام الشدياق بهذا المعنى الشيخ ابرهيم اليازجي في آخر ردّه عليه[٥].
غير انهم ذكروا للشيخ ناصيف بيتين في الهجو لا غير ، قالهما في بخيل وهما :

١) راجع مجلّة «الجنان» السنة ١٨٧١ ، لمنشئها المعلّم بطرس البستاني ، صفحة ١٥٠و١٩٠

٢) الصفحة ١٩٥ منها .

٣) من الغريب ان تُصدر مجلّة « النفائس » البيروتية ، لصاحبها انيس عبد الخوري ، عددًا خاصًّا في ٣٢ صفحة عن اليازجيين ، بمناسبة نقل رُفات الشيخ ابرهيم اليازجي من مصر الى لبنان سنة ١٩١٣ ، محبَّرًا بقلم كامل حميّه ، وان يضع الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف كتابين مختصرين ، الاول في تاريخ المشايخ اليازجيين في ١٤٠ صفحة ، والثاني في تاريخ اصهارهم وبناتهم واسباطهم في ١٤٧ صفحة بقطع ثُمن ، مطبوعين بالمطبعة المخلّصية – صيدا ، لبنان – سنة ١٩٤٥ ، وان يجمع ميخائيل رحمه دواوين الشيخ ناصيف الثلاثة ، في ديوان واحد ويطبعهُ بنفقتهِ بالمطبعة الشرقية ، الحدث – لبنان – ١٩٠٤ ، مصدَّرًا بترجمة الشيخ ناصيف بقلم سبطهِ امين الحدّاد ، ولا يأتي واحد من هؤلاء المترجمين الشيخَ اليازجي الكبير ، على ذكر ترجمة دياب الموما اليها .

٤) راجع جريدة «الجوائب» ، ١٠ ايار سنة ١٨٧١ ، العدد ٥١٩ ، وكتابنا «الشدياق واليازجي» ص ٦٥ ، مطبعة المرسلين اللبنانيين – جونية (لبنان) سنة ١٩٥٠ ، في ٣٥٣ صفحة بقطع كبير .

٥) مجلّة «الجنان» السنة ١٨٧١ ، الصفحة ٨٤٣ ، وكتاب «الشدياق واليازجي» ص ١٣٩

قد قال قومٌ إنَّ خبزكَ مالحٌ والبعضُ أثبتَ بالحلاوة حكمَهُ
كَذَبَ الجميعُ بزعمهم في طعمِهِ مَن ذاقهُ يوماً ليعرفَ طعمَهُ

كنا نقرأُ ونسمع ان الشيخ ناصيفَ لم يهجُ أحداً في شعره ، ونحن غير مصدّقين ان شاعراً مثله مطبوعاً جوّاد القريحة يقرض الشعر في ظروف شتّى ولم يخطر له مرّة نظم شعر في الهجو ، وهو يعيش بين الناس ويخالطهم ويعاشرهم ، والشاعر كسائر الناس يحسّ ويتأثر بما يرى ويسمع ما لا يستطيبه ذوقه وينفر منه طبعُهُ ، لا بل ان الشعور فيه بالغ حدّ الارهاف ، فلا بدّ من ان تستفزّه يوماً واقعةُ حالٍ او نفرةٌ من أحد فيتأفف ويتبرّم ، وتضطره الى ارسال كلمة ملامٍ او هجوٍ نثرًا او شعرًا ، لانه لا يستطيع ان يصدّ تيّار شعوره عن الانطلاق والانفلات عندما يثور ثائره ويفور فائره .

وهذا القس جبرائيل فرحات (المطران جرمانس) بالرغم من تزهّده وعلو كعبه في العلم والفضيلة ، نراه يعجز عن اخفات صوت شاعريته وكبح ميله عندما يرى ما يرى من تعنيف القس جبرائيل حوّا (المطران جبرائيل) ابن مدينته ورهبانيته ومخادعته ومعاكسته له في بعض شؤون تتعلق بخير الرهبانية ، عندما اجتمع به في دير مار بطرس ومرجلّين برومة العظمى ، فقال فيه سبعة ابيات من الشعر هجاه بها ناسباً اليه المخادعة والمصانعة والمظاهرة بفعل الخير . وهذا اوّلها :

بمَرْجَلّينَ صادفنا فعالاً تُذكّرنا فعالَ المُفترينا
بانسانٍ أرانا الخيرَ لفظاً بلا معنًى فخلناهُ مُبينا[1]

وما برحنا غير مصدّقين ان الشيخ ناصيف اليازجي لم يهجُ احداً في حياته ، حتى وقفنا له على قصيدتين خطّيتين في الهجو مجهولتين غير منشورتين في اجزاء ديوانه الثلاثة : النبذة الاولى من شعره ، ونفحة الريحان ، وثالث القمرين ، وهما لا تقدحان في عِرض الشيخ ولا تنقّصان من كرامة منزلته . الاولى قالها في رجل رغيبٍ أكولٍ ، وهي مدوّنة في الصفحة ٤٨٨ من مخطوط دير الشير ، تحت رقم ١٣٣ عدد ٤٦ ، الذي أتينا على وصفه . والثانية ، وقد سُئل نظمها ،

---

١) قولهُ : أرانا الخير لفظًا الخ ، كناية عن انهُ مُخادع يمدح الخيرَ ويجتنبهُ ، ويذمّ الشرَّ ويرتكبهُ (ديوان المطران ص ٤٤٠)

في احد المغفَّلين المتعرِّضين لنظم الشعر ، مرقومة في صفحة ٤٥٢ من المخطوط المذكور .

واليك نصّ القصيدتين بعنوانيها :

القصيدة الاولى

« وقال (الشيخ ناصيف اليازجي) في رُجلٍ » :

سبيلك أنّهُ أهنا سبيلِ اذا استغنيتَ عن ذكرٍ جميلِ
أسرُّ القومِ أحمقُهمْ فؤادًا وأشقى الناسِ أربابُ العقولِ[1]
وما انتَ الجهول اذنْ ولكنْ جهولٌ مَن تمسَّك بالجهولِ
اذا طاب الفتى بالجهل نفسًا فأهونُ ما يُرى وجهَ المذولِ
متى رمتَ الكرامةَ من لئيمٍ فإنَّكَ طامعٌ بالمستحيلِ
ومَن ركب الحمارَ فجال فيهِ تعظّم فوق فرسانِ الخيولِ
نظمتُ بكَ القريضَ وبي اعتذارٌ الى الرحمانِ من شرِّ الفضولِ
فلا هجوًا ولا نصحًا ولكنْ أردتُ بذاك ان أشفي غليلي
كأنك صخرةٌ في البيت ليست سوى للضيقِ والحملِ الثقيلِ
وليتك لو حكيتَ الصخرَ صومًا فلستَ سوى شروبٍ أو أكولِ
بلادةُ أشيَبٍ في جهلِ طفلٍ ورقّةُ أرنبٍ في أكل غُولِ
متى وُضع الطعامُ لديك شِئنا هجوم الوحشِ في جَسَدِ القتيلِ
تُلاطمُ كفُّكَ الأخرى وتُدمي ثناياكَ الأصابعَ كالنُصولِ
ونسمع منكَ دَمْدَمَةً وتَنفخًا كنفخِ الهرِّ أو نخطِ المُجُولِ
نرى الجَفَناتِ[2] حولك مُنهماتٍ قد استغنينَ عن دَلْكٍ[3] الغَسُولِ
وللرُغفانِ[4] بين يديك صوتٌ كعصفِ الريحِ في وَرَقِ النخيلِ
فما ينجو طعامٌ منك حتى تطنّ حشاك من بعض الطبُولِ

---

١) ان معنى هذا البيت مُقتبس من قول المتنبّي :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقلهِ وأخو الجهالةِ في الشقاوةِ ينعمُ

٢) الجفنة : القصعة الكبيرة ج جِفن وجِفان وجَفَنات .

٣) دَلَكَ دَلْكًا الشيءَ : فَرَكَهُ ودَعَكَهُ .

٤) الرغيف : الكتلة من العجين . ما رُقّق وخُبز منهُ ج أرغفَة ورُغف ورُغُف ورُغفان . ويظهر ان الخبز في عهد الشيخ ناصيف كان يابسًا حتى يُسمع لكسرهِ في يد مَهجوّه ، صوتٌ كعصف الريح .

ولا يُحمى رغيفٌ منك إلّا اذا كتبوا بهِ علمَ الأصول[١]

٥

بحقك لا تؤاخذني لأني هجونك ليس عن أمرٍ قليلِ
صفاتُك تدهشُ الألبابُ منها فأنت على النباهة في المثولِ
لقد عالجتُ سقمك قبل هذا فزاد علاجُ سقمك في النحولِ
اذا صار الدوا داءً علمنا بأنَّ الخبثَ من نفَسِ العليلِ
هجونُك ثمَّ أهجو ثمَّ أهجو الى أنْ تستقيمَ على السبيلِ
وما هذا بحجوك غير أني ذكرتُ بهِ مقدّمةَ الفصولِ

القصيدة الثانية

«وسُئل (الشيخ ناصيف اليازجي) كلاماً في احد المتعرّضين لنظم الشعر فقال»:

خَلِّ الكلامَ لأهلهِ يا قايلُ ودعِ انتحالك فهو أمرٌ باطلُ
أتخوضُ ويكَ ولستَ أولَ جاهلٍ بحرًا ، لقد أعياك منهُ الساحلُ
لو كان نظمُ الشعرِ سردَ كلامهِ عمَّ الخليقةَ فهو حكمٌ شاملُ
ومن العجائب ان يطاعنَ أعسمٌ[٢] ويصولَ ما بين الفوارس راجلُ
قد قيل بالشعراء اتّبعهمُ همُ الغاوون ليس يقولُ منهم فاعلُ[٣]
قد يكذبون على العبادِ وأنتَ قد أكذبتَ نفسك حيثُ جئتَ تناضلُ
دعْ أيُّها المغرورُ شعركَ انّهُ أضحى لصيدِ هجاكَ وهو حبائلُ
لمّا رأينا أنَّ شعرك ناقصٌ قلنا ولم نشكك بأنك فاضلُ
صيّرتَهُ سبباً لهجوكَ لاحناً فعلامَ يعتبُ من أجاب السائلُ
لو لم تبنْ أبياتُهُ بين الورى ما قيل إنَّكَ أحمقٌ أو جاهلُ

٥

ولرُبَّ ديوانٍ نظمتَ كأنَّما هو جعبةٌ فيها السهامُ قواتلُ
ضمَّنتَهُ فنَّ البديع فلو حوى جفنًا ترقرق منهُ دمعٌ هاطلُ
ويحَ الخليلِ وويحَ ضربِ عروضهِ فلقد تكسّرَ والتقتهُ فواصلُ

---

١) عبارة عن . . . هنا كلمات قُطعت بمقراض تجليد هذا الكتاب .
٢) الأعسم : يابس اليد (في الاصل) .
٣) وردت في القرآن هذه الآية : والشعراء يتبعهم الغاوونَ . الم ترَ انّهم في كلِّ وادٍ يهيمون . وانّهم يقولون ما لا يفعلون (سورة الشعراء) .

تأتي بوافرهِ وكاملهِ[1] وما … بهما مفاعيل ولا متفاعلُ
أَسمِعْتَ انَّ الشعر يُقسَمُ أبحُرًا … فطمعتَ أنَّك ، في اتساعٍ ، جائلُ
ليتَ أتساعك في تباينِ وزنهِ … لحِقَ القوافي وهيَ فيهِ تماثلُ
وأصرتَ علمَ النحو لعبةَ عابثٍ … فاذا بجدِّك وهو فيهِ هازلُ
لمَّا وضعتَ عليهِ كفَّك ماضيًا … سقَطَتْ عن الإعرابِ منهُ عواملُ
عيبٌ عليكَ وأنتَ أشيَبُ لِمَّةً … تُطلى عليك خديعةٌ وتخاتُلُ
فأجبْ فؤادك ، إنْ أتى لك شاهدًا … بالنظم ، أنَّك كاذبٌ يا غافلُ
لا تحسبنَّ الشعرَ كأسَ مدامةٍ … يحوي ، عليهِ بكفهِ ، المتناولُ
هو سيّدٌ لم يرضَ مثلك ؛ إنَّهُ … عبدٌ ، بحضرتِهِ الشريفةِ ، ماثلُ

ه

عذرًا بحقِّ بديع نظمك صحَّةً … وفنونُـهُ بشجونِهِ تتقابل
ما كنتُ بالهاجي سواك وانَّما … شِيَمي بايفاء الحقوق عوادلُ
واعلمْ بانَّ الشعر أصعبُ مركبٍ … يُلقي اخاك بهِ المثارُ العاجلُ
كَمُلَتْ مناقبُهُ وفيك نقائصٌ … والنقصُ أكره ما يراهُ الكاملُ

[للمقال صلة]

---

١) الوافر والكامل : بحران من أبحُر الشعر .

✡ أخبرنا الاب اغناطيوس ساسين حرب الجبيليّ احد ابناء رهبانيتنا اللبنانيَّة المارونيَّة ، البالغ من العمر السنة التاسعة والثمانين المتمتّع بصحة العقل والجسم ، نقلًا عن غيره . قال ما هو بمعناهُ : قصد الشيخ ناصيف اليازجي زيارة احد اصحابه في بيروت ، ولما بلغ قرب الدار رذَّت السماء ، واذ قرع الباب استوقفهُ البوَّاب ريثما يدخل على صاحب الدار ويستأذنهُ في دخول الشيخ الذي ظلَّ منتظرًا خارجًا ، فتبلَّلت ثيابهُ. واذ عرف صاحب الدار ان الطارق هو الشيخ ناصيف صاح في خادمهِ قائلًا : ويحك ! هذا الشيخ ناصيف اليازجي عجِّل فافتح لهُ . ولما دخل الشيخ وجلس ، سأل البوَّاب : ما اسمك ؟ اجاب : اسمي بارد . قال الشيخ بديهًا :

يا باردٌ غلطوا بنقطةِ بائهِ … ما أنتَ إلَّا باردٌ سوءٌ سَمِجْ
تبًّا لدارٍ أنتَ بوَّابٌ لها … كيف الذي يأتي اليها ينفرج

ميمر غير معروف لمار يعقوب السروجي

نشره المونسنيور الدكتور جرجس گراف

توطئة

من المعلوم ان عددًا وافرًا من الميامر والمداريش وُجد تحت اسم يعقوب السروجي المؤلف السرياني الشهير المتوفى في سنة ٥٢١[1] . ومن المعلوم ايضاً ان بعض هذه المصنّفات حمل خطأً اسم المؤلف المذكور . وليس من المحقق ان الميمر الذي عزمت على نشره هنا هو من تأليفه .

ولقد نقلنا النصّ عن نسخة من المخطوطات العربية المحفوظة في خزانة الكتب العمومية في مونيخ من بلاد باڤاريا[2] . وهي تحمل العدد ١٠٦٦ . وهذه النسخة مع خمس نسخات اخرى اشتراها منذ ثلاث وثلاثين سنة الدكتور گروتي (Grote) الذي جمع كثيرًا من المخطوطات اثناء رحلته الى المشرق وتوفي في سنة ١٩٢٢ .

ان الميمر الذي ننشره الآن قد وُجد كما ذكرنا تحت رقم ١٠٦٦ في الورقة الاولى من مخطوطة يبلغ عدد صفحاتها اربع عشرة صفحة وكلها نُسخت بذات الخط الذي نُسخت به جميع الكتب العربية في دير مار سابا ودير طورسينا في القرنين التاسع والعاشر . ونحن نعلم ان الميمر الذي بين يدينا قد نُسخ حوالي سنة ٩٠٠ م ، اي في زمن الكتابة بالحروف العربية .

ان الاوراق هي من رقّ والنص العربي مخطوط فوق النص السرياني بحروف اسطرنجيلية ممحوّة ولا يُرى منها الّا اليسير .

اما الورقة الاولى فطولها ٢٣٠ ملترًا وعرضها ١٣٥ ملترًا والصفحة الاولى تحتوي على ٢٢ سطرًا والثانية على ٢٠ فقط . ولقد اهملت نقط التمييز والحركات ما خلا الضمة في بعض الاحيان . ونجد في لغة المترجم الميزات الخاصة بالمؤلفين

[1] A. Baumstark, *Geschichte der syrischen Literatur*, Bonn 1922. ص ١٤٨–١٥٨
G. Graf, *Geschichte der christlichen arabischen Literatur*, I. Bd. (Studi e Testi 118), Città del Vaticano 1944, pp. 444-452.

[2] *Bayerische Staatsbibliothek in München.*

الاولين من النصرانيين المستعملين اللغة العربية[1] . ولذلك فهذا الميمر الذي بين يدينا يُظهر لنا نشأة الاداب المسيحية باللغة العربية .

والمخطوط المذكور يتضمن ١ً بعد « المراثي » ثلث قطع وهي : ٢ً « معرفة وجود رأس يحنا القديس المجد النبي المقدم المعمدان الشهيد الكاروز ماري يحنا » وهي منقولة عن اليونانية (fol.2r°-5v) . ٣ً « من قول القديس ثاوفلس بطريرك الاسكندرية قاله على الاعمى المولود من بطن امه » الخ (fol. 5r, v) وهو غير معروف بين تآليف البطريرك ثاوفلس وينقصه الختام . ٤ً « من قول يحنا فم الذهب قاله على هيرودوس عندما هانوه المجوس» الخ (fol. 7r, v, 6r, v) لا يُعرف في محل آخر وهو بغير ختام .

فاذا قابلنا بين المخطوطة العربية الشاملة رقم ١٠٦٦ المحفوظة في مونيخ وبين صفحة اخرى من مخطوطة سينائية مصوّرة في كتاب « الدروس السينائية[2] » (العدد ١٢) ، يظهر بوضوح ان القطعتين هما من سجل واحد اي من السجل العربي العدد ٥١٤ في دير طورسينا . ولقد دُرست المخطوطة في « الدروس السينائية » العدد ١٢ الصفحة ١٣ و١٧ وفي الـ « Expository Times » ١٩٠٢ ص ٥٠٩—٥١٠ ، واذا ما قابلناهما وجدنا ان لها الطول نفسه وعدد الاسطر — وهذا مهم جدًا — والكتابة نفسها من عربية فوق وسريانية تحت .

ويحتوي « رق » دير طورسينا (العدد ٥١٤ من المخطوطات العربية) في النص الاول اربع عظات من يعقوب السروجي وبعض نتف من حياة الشهداء . امّا النص السرياني فهو اقسام من انجيل يوحنا .

وفي السنة ١٩٠٢ فقط استطاعت السيدة جبسون (Gibson) ان ترى في دير طورسينا « الرقّ » الغير الكامل . وينتج من هذا ان قطعة مونيخ (العدد ١٠٦٦) قد فُصلت من زمن بعيد عن المخطوط الاصلي .

---

١) Cf. G. Graf, *Der Sprachgebrauch der ältesten christlich-arabischen Literatur*, Leipzig 1905.

٢) *Forty-one Facsimiles of dated christian Arabic manuscripts with text and English translation, by Agnes Smith Lewis and Margaret Dunlop Gibson, Studia Sinaitica* N°, XII, Cambridge 1907, Frontispiece; cf. p. XVII.

(fol. 1r) من قول ماري يعقوب السروجي على اللصين مرائي

ما احسن الاعمال الصالحة للذي ينظر بالمحبة ويفحص في حكمته البر ويسلك في طريق العدل المعدة لجميع القديسين ❊ بهين ايضاً جدي[1] اللصين المصلوبين مع بن الله . صلب احدهم عن يمينه . والآخر عن يساره ❊ الطوبا للذي عن يمينه . والويل الكبير للذي عن يساره . صلب ربنا بينهما وجعلا يتدارسا في سببه ❊ واحد كان يقول ان كنت بن الله فخلصنا معك . والآخر كان ينادي ويقول بامانه اذكرني يا رب اذا اجيت[2] ❊

بن الشمال الذي لم يومن به باصوات التذيفة[3] كان يصرخ ويجدف عليه ويقول خلصنا معك ان كنت بن الله انزل من الخشبة لنومن بك[4] ❊ اجابه بن اليمين وقال له ايه الرجل الهايق الجم لسانك ولا تجدف على بن الله المعلق على الصليب منجل الخطاة ⊙

قال بن الشمال ما اصدق انه بن الله بعد المصايب الذي ارا به من قد سمرت يديه ورجليه ومن قد اقترعوا على لباسه ومن قد جعل على راسه اكليل الشوك بعد هذا كله من يصدق انه بن الله . قال بن اليمين ان كنت انا تفحص عن مصايبه وقد عميوا عينيك الباطنة . فانظر الى الارض التي قد ارتعدت من اساسها وبغمرته ثبتها ليلا تهلك سريعا ⊙

قال بن الشمال انظر انت الان الى عظيم الكهنة الذي بيديه خرق ثيابه ويصيح قايلا قد حق عليه الموت لانه صير نفسه اله[5] فمن يومن به انه الله.

قال بن اليمين انظر انت الان الى الشمس الذي اظلم واخفا نوره المضي وتغطت الارض بالظلمة وصرخو[6] الموتا من قبورهم . هذا يقين (fol. 1v) بن الله ⊙

١) الصواب : جبين ايضاً جدو .
٢) الصواب : في ملكوتك (لوقا ٢٣ : ٤٢
٣) كذا في الاصل
٤) متى ٢٧ : ٤٣ ومرقس ١٥ : ٣٢
٥) والصواب : الاهاً .
٦) اصلح : وصرخوا .

قال بن الشمال انا اراه في كل هواة وذُلّ لا يُحصا مقروع بالقصبة مجروح الجنب وامه واقفة حزينة منكسة الراس وجميع تلاميذه قد هربوا . قال بن اليمين هذا الاتضاع الذي تراه فعله منجل ادم اتضع سيد الملوك ومنجله صعد على الصليب وصلب الخطية ونزل على الموتا ليعتقهم ۞

قال بن الشمال هوذا هو مكتوف كيف يحل وثاق ادم كما تقول . كان ينبغي له ان يحل نفسه بديا[1] وحينئذ يهتم بحل ادم فنيقن انه قادر على ما يريد . قال بن اليمين ايه الوقاح المرح كم تكثر الكلام كانك شامت[2] بموت الوحيد . الحجارة والصخور شهدت انه الله وقلبك انت لم يلين لان الشيطان قد سكنه ۞

قال بن الشمال ظهره مضروب[3] بالسياط وهو عريان معلق على الخشبة . والاحبار يتهون به ويحركون روسهم[4] عليه وقد اعطوه في وقت عطشه خل ليشرب . فمن يصدق انه اله كما تقول ۞ قال صاحب اليمين المجد لذلك الذي احب برحمته ان يقبل عنا المصايب وتعالا على خشبة الصليب . ورفعنا وجلسنا عن يمينه ودعانا جميع الى فرح وايمنه[5] . له السبح والعظمة والقدرة وعلينا رحمته الى دهر الداهرين امين ۞

---

١) في النسخة : بديا . والصواب : بدءً .
٢) اي شامتٌ وفي الغالب شمِتٌ .
٣) في النسخة غلطًا : مصورب .
٤) اي رؤوسهم .
٥) والصواب : وايمانه .

الرسالة المشفية للامراض المشكلة

في المراقيا

رسالة طبيّة خطيّة (تابع)

تأليف

أحد العلماء المتبحّرين وأمجد الفضلاء المدقّقين
أوحد زمانهِ وجالينوس عصرهِ وأوانهِ
الحكيم فيضي مصطفى افندي
عُنيَ بنشرها
الاب انطونيوس شبلي اللبناني

الفصل التاسع

في بيان تسكين اعراض المراقيا

إعلم ان القاعدة الكلية اولاً هو علاج المرض لانه اذا لم يُزَل المرض فلا يزول العرض الحاصل بسببه ، والحال ان في هذا المرض قد تحصل اعراض رديئة كما تقدم بيانه فيلزم اولاً :

انه اذا لم تسكن الاعراض فيعرض ضعف لقوى العليل بسبب العرَض الطارئ عليه فيكون ذلك سبباً لاشتداد اصل المرض .

واعلم ايضاً ان اعراض هذا المرض هي خمسة :

الاول : السهر ، وهو يحدث من صعود الابخرة الحارّة اليابسة الى الدماغ ، ومن حيث انه يُضني ويضعف الروح النفساني ويورث الضعف جميع القوى ، فلا يمكن علاج اصل المرض ما لم تسكن الاعراض .

ومما يجلب النوم ويسكن العرَض هذا المستحلب . وهذه وصفته :

بزر بطيخ . وبزر جبس . وبزر قرع وبزر خيار . ومن كلّ خمسة دراهم . وثلاثة دراهم بزر خشخاش ابيض . وعشر لوزات مقشّرات

تُدق هذه اللبوب بهاون من رخام ونُخل بماء الشعير المقشور على قدر الكفاية حتى تصير كاللبن وتوضع ، ويضاف اليها مقدار من شراب النيلوفر وهي سخنة . تعطى للمريض دفعةً واحدة عند النوم في العشيّ ، فاذا لم تفِ في تنويمه فلتُغسل رجلاه بهذا المطبوخ سخناً لينكس البخار . وهذه صفته :

بابونج . خطميه . حشيشة الزجاج . خبازى . من كلٍّ قبضة . وخمسة دراهم من بزر السبت . وورق قصب قبضتان .

تُطبخ بماء على قدر الكفاية وتغسل الرجلان بها الى الركب وهي ساخنة على قدر الاحتمال .

وان كانت الاعراض متعاظمة ولم تفِ هذه المعالجة بالمطلوب ، فلتُدهن الاصداغ وداخل الانف وباطن الكفين واسفل القدمين بمرهم اليوبليون ، اي مرهم الحور . واذا لم تفِ ايضاً فيعطى له درهم من معجون الركه ويُسقى عليه المستحلب المذكور آنفاً .

الثاني : وجع المعدة ، لأن الطعام يفسد في المعدة فيحصل منه ريح ومن تمديد الريح وجع .

فمن هذا الوجه ينبغي اعطاء مُقيٍّ خفيف ، لان القيء اولاً يُخرج الطعام الفاسد . وثانياً يُخرج البلغم والرياح ، وهذه صفته :

يُعطى له مئة درهم ماء الزهر مُسخَّن بزيادة ، وبعد مرور نصف ساعة يدخل اصبعه في حلقه ويتقيأ . وان لم يقدر على القيء بهذا العلاج فليستعمل هـذا المقيّء . وهذه صفته :

يؤخذ خمسة دراهم بزر فجل . وثلاثة دراهم بزر سبت . وثلاثة دراهم أصل بطيخ . ويُطبخ بنصف أوقية ماء الى ان يبقى نصف الماء . ويُصفَّى ويُضاف اليه ثلاثون درهم سنكنجبين . وقبل ان يبرد يشربه دفعة واحدة .

وان كان بهذا العلاج لا يتقيأ ، فيضاف الى المطبوخ الثاني درهم غاريقون مسحوق ينتقع فيه اثنتي عشرة ساعة ويُصفَّى ثم يُشرب . وبعد المقيّء يدهن المعدة بهذه الادهان . وهذه صفتها :

دهن مصطكي . دهن ورد . دهن سنبل هنـدي . دهن جوزبوا . دهن افسنتين .

تُخلط هذه الادهان بعضها ببعض ويدهن بها المعدة مسخّنة. او انه يُؤخذ رغيف خبز سخن يُفسخ نصفين ويُنقَّط على نصفه الواحد بضع نقط من الادهان المذكورة ويُرشّ عليه من هذا الرشاش ويُوضع على المعدة . وهذه صفته :

ورد يابس . وزهر بابونج يابس . ومصطكي . من كلٍّ درهم. يُسحق كالغبار ويُرشّ على نصف رغيف الخبز السخن مع الادهان المذكورة ويوضع على المعدة كما قلنا آنفاً .

فاذا لم يسكن وجع المعدة بالقيء فليستعمل مثقالاً من الحبّ المركَّب من التمرتينا والغاريقون المارّ ذكره في ما سبق ، لان هذا الحبّ يُخشِّن المعدة والفضلات الباقية يجذبها الى الامعاء .

الثالث : الخفقان من كونه يضعف الروح الحيوانيّ والقلب . فالمريض ييأس من حياته ، من حيث ان القلب هو من الاعضاء الشريفة فلا يعود له طاقة على تحمّل شيء من اليأس .

فاذ يعرض الخفقان للعليل ينبغي له ان يتناول الادوية القلبية ويشرب عليها ماء الاستورزونيرا وماء لسان الثور وماء البادرنجبويه .

وان كان بهذا العلاج لا يسكن ايضاً فليضع على القلب هذه اللصقة :

يُؤخذ درهمان درياق الفاروق البندقي . ودرهمان معجون القرمز . وثلاثة دراهم معجون الدياسنطو . وثلاثة قراريط زعفران. وثلاثة دراهم ماء الزهر. تُخلط هذه الاجزاء بعضها ببعض وتُغلى بماء الزهر على نار لينة الى ان يذهب الماء، فتوضع على خرقة وهي حارّة على قدر الاحتمال لصقاً على ناحية القلب.

فان كان لا يسكن الخفقان ايضاً فليكرّر هذا العمل دفعات متعددة . وفي اثناء هذه المعالجات ينبغي ان لا يغفل عن اعطاء الحقنة لان اكثر السبب واقع من صعود الابخرة .

وان كان لا يفي هذا العلاج ايضاً ، وكانت السدّة في جانب الطحال ، فليوضع على ذلك المكان اربع او خمس كاسات حجامه من هواء من غير دم. وان كانت من جانب الكبد فلتوضع الكاسات في ذلك المكان . وان كانت لا تغني هذه المعالجات كلها ايضاً ، فليُعطَ المريض عشرين درهماً من شراب خَبَث الحديد والفولاذ المقدّم ذكره . (عن مرتاد الطبيب) لان المذكور

اصطنع هذا الشراب لاجل الخفقان العارض بسبب السدَّة .

وانا الفقير أبتليتُ بمرض المراقيا ، واذ كان يعرض لي خفقان جرَّبتُ هذا الشراب فشاهدتُ نفعه وافرًا عظيماً .

وقال وسترطوس الحكيم : انني استصوبتُ استعمال الادهان التي استخرجها حكماء الافرنج من قشر الأترج والدارصيني بالاستقطار في معالجة الخفقان العارض بسبب الريح .

وانا الفقير ايضاً لمَّا جئتُ من بلاد الافرنج الى القسطنطينية في الغلطه[1] ، جرَّبتُ هذا بنفسي فشاهدتُ نفعه عياناً بلطف الله وحوله .

وهذه هي طريقة استعمال الادهان المذكورة :

قشر الأترج والدارصيني يُستقطر منه خمس نقط في مَرَق الدجاج او في طبيخ البادرنجبويه المُذاب فيه شراب العنبر ويُشرب كالقهوة .

الرابع : انه يحصل في الامعاء وجع مشابه للقولنج ، وسبب ذلك هو انه ينفذ الى طبقات الامعاء ريح فيورث وجعاً تمديدياً خصوصاً اذا كانت طبيعة المريض مقبوضةً فتجتمع الفضلات وتُحدث ريحاً مؤلمة فيحصل من ذلك وجع الامعاء . وعلاج هذا المرض الحقنة المتوسطة . وهذه صفتها :

خبازى . حشيشة الزجاج . خطميه . سلق . لسان الثور ، من كلٍّ قبضة . وعشرة دراهم بسفايج طري مرضوض . وثلاثة دراهم رازيانج . ودرهمان بزر كتَّان . وثلاثة دراهم اكليل الملك . وثلاثة دراهم اكليل الملك . وثلاثة دراهم زهر البابونج . ودرهم ونصف غاريقون .

تُطبخ هذه الاجزاء بماء على قدر الكفاية . ويؤخذ من الماء المطبوخ مئة وخمسون درهماً ويُلقى عليه عشرة دراهم خيار شنبر . وثلاثون درهماً شرخست . وخمسة وعشرون درهماً دهن بابونج ويحتقن به . فهذه الحقنة تحلّل الريح وتُخرج الفضلات .

وان كان الوجع لا يسكن بهذا العلاج فلتُعمل هذه التكميدة . وهذه صفتها : يؤخذ خبازى . وحشيشة الزجاج . وخطمية . وزهر بابونج ، من كلٍّ

---

١) يريد بالغلطة : المركب .

قبضة . وخمسون درهماً بزر كتّان . وخمسة دراهم بزر حلبه . وخمسة دراهم سبت . وعشرة دراهم اكليل الملك .

تطبخ بأربع اواقي ماء الى ان يبقى نصفه، ويُلقى على الماء المطبوخ اسفنجة جديدة تُبلّ بـه قبل ان يبرد ، وتوضع على المكان الموجوع . وبعد تُرفع الاسفنجة ويُمسح مكانها ويدهن بهذه الادهان سخنة وهي :

دهن لوز حلو . ودهن زيبق . ودهن بابونج . ودهن افسنتين . ودهن دجاج . ودهن وزّ .

يُخلط بعضها ببعض وتُسخّن على نار ليّنة قليلاً ، ويُدهن بها مكان الوجع وان كان لا يسكن ، فيُؤخـذ شحم الخروف المذبوح طريّاً وهو سخن قبل ان يبرد ، ويُوضع على محلّ الوجع .

الخامس : وجع الكُلى ، فانه كما تقدّم القول في أوّل هذه الرسالة ، ان الطبيب الجاهل لا يدري بان هذا الوجع عَرَض حادثٌ من حوادث المراقيا فيعالجه معالجة حصاة الكلى ، مع انه عرَضٌ لا مرضٌ . ومن حيث انه عرَض فغاية علاجه بالحقنة المتوسطة . فاذا لم يسكن بالاحتقان ، فلتوضع على المحل الموجوع الادهان المتقدّم ذكرها في باب معالجة وجع الامعاء .

﴿ الفصل العاشر ﴾

في بيان تدبير الاسباب الستّة الضرورية لاصحاب هذا المرض

اولاً يجب ان يكون غذاء صاحب هـذا المرض لحوم الخرفان والجدايا والفراريج والحجال والدجاج . واذا كانت حرارته لا تزيد على لحوم الحملان فهي مناسبة ايضاً . واذا كانت اللحوم المذكورة مشويّة فجائزة ايضاً . ومن انواع السمك ، الاسماك الصخريّة فاذا اشتهاها المريض فلا بأس من تناولها ، لا سيّما اذا عصر فوقها ماء الليمون الحامض ، ولكن اجتناب مداومتها أولى وأنسب .

وفي أيام الشتاء يجوز تناول البيض الطري من يومه اذا صار نيمرشت ، فيتناول صفـاره . ومن الخضرة السبانخ والخُبّيز ولسان الثور يُخلط بعضها ببعض . واذا طُبخت اللحوم المذكورة بها فهي مناسبة . وأمّا اذا كانت بلسان

الثور وحده فهي أنسب وأنفع ايضاً . وشوربة الأرز واللبا (واللب) من الأرز فلا بأس منها .

وليجتنب اللحوم المقدّدة والمملّحة والبصطرمة والصوجق وما يُشبه ذلك من لحوم القديد سواء كانت بالملح أو بالدخان فانها مضرّة جدًّا . وأما لحم المعز والبقر والارنب والنزال والأيل والسمّن والوزّ والبطّ فهي كلّها مضرّة جدًّا. ومن السمك ، الاسماك الناشئة في الرامات[1] والاسماك البحرية الكبيرة فهي مضرة ، والخبز الفطير مضرّ ايضاً ، كذلك الاطعمة المصنعة (المصنوعة) من السكّر والعسل فهي مضرّة جداً لتسديدها (تسبّب السدد) وسرعة استحالتها الى الصفراء ، واذا احترقت تستحيل الى السوداء . ومن الخضرة الباذنجان والكرنب فانهما ضارّان .

ونتيجة الكلام ينبغي الاحتراس من الاغذية التي تولّد أخلاطاً سوداوية وأخلاطاً غليظة لزجة . ومن الاطعمة التي تولّد فضلات زائدة . وينبغي اجتناب الاطعمة المصنعة (المصنوعة) من العجين والالبان على الاطلاق .

ومن جهة المشروب فان كان العليل من الاغنياء والموسرين فليستعمل[2] المغلي بعود الطّرفاء . واذا لم يوجد ذلك يُغلى له الماء بأصل لسان الثور مع مثله من الصندل الابيض ، وبعده يُطفّى به سكّة (سبيكة) ذهب خالص محمّية دفعات متعدّدة ويشرب منه موضع (بدل) الماء . واذا طُفي بالماء القراح بجرّده يجوز ذلك .

وأما اذا كان فقيرًا معسرًا فيُطفّى له الماء بفولاذ افرنجي محمي سبع دفعات .

والنتيجة لا يجوز له شرب الماء الخام أصلاً . وليحذر من شرب الماء البارد والمبرّد بالثلج والجليد . وعلى الخصوص ينبغي الاحتراز من الحركات العنيفة والجماع لا سيّما اذا كان بعد الحمّام . وليجتنب الاشربة الحلوة جداً . امّا اذا كان حلوها قليلاً فالشرب منها يسيرًا فلا بأس منه ، لان الحلو بجملته يسبّب السدد وهو عدوّ الطحال ايضاً . ولا بأس من زيادة النوم ، واذا امكن فليكن ثماني ساعات لا أنقص . وينبغي الاحتراز من النوم في النهار . اما اذا

---

١) يريد بالرامات : البِرَك .

٢) هنا كلمة منتزعة من طرَف الصفحة .

كان في الصيف فلا بأس منه لاجل تكميل الثاني ساعات ، وليكن ذلك ضحى . أمّا النوم في الشتاء فلا يجوز .

لا تجوز الحركات العنيفة لصاحب هذا المرض لانها تورث السّدة[1] خصوصاً اذا كانت على الشبع . فأما الحركات المعتدلة فهي نافعة خصوصاً اذا كانت قبل مباشرة الطعام ، او بعده بربع او ثلث ساعة .

واما تدبير بقيّة الحركات الستّ الضرورية لاصحاب هذا المرض كالهواء المحيط ، والاستفراغ ، والاحتباس ، والحركات النفسانية ، فإبقاء تدبيرها الى الطبيب الحاذق الفطن ، أولى من ايرادها هنا كونها غير ضرورية .

تمت

١) في نسخة «الحدث» : تقوي السدد .

ملحق

قد عُلق بعض وصفات طبيّة متنوعة على الورقات الاولى من كتاب «الاقتضاب» هذا ، والورقات الاخيرة منه ، على ما اشرنا اليه في توطئتنا على «الرسالة المشفية» والرسالة والوصفات ليست من صلب الكتاب بل خارجة عنه ، وخطها دقيق يختلف عن خطّه . ولما كانت هذه الوصفات الطبيّة الدرية لا تخلو من الافادة رأينا ان نلحقها بهذه الرسالة وننشرها على علّاتها ، وهذه هي بحرفها :

في الحمّيات والترولات التي من قِبَل الدم

اولًا : اذا كان النّبض شديدًا وممتلئًا ويدقّ (ويضرب) بسرعة ، فيكون من قبل دم . وفي بعض الاوقات لا يصير امتلاء بل يكون رفيعًا شديدًا وجَسّته مثل الخيط وتكون علامته حمورة في الوجه ، او وجع ظهر ، أو شكّة ، او تعبة في الجسم ، فيكون من قِبَل دم . وأما بعد الفصاد فيفتح النّبض ويصير يدقّ (يضرب) .

ثانيًا : في الحمّيات والشكّات التي من قِبَل ضعف ، فيدقّ النّبض احيانًا بسرعة واحيانًا على مهل ولكنّه يكون دائمًا ضعيفًا لا شديدًا .

شرح أوّل في الشربات

اولًا اذا كان من لزوم يجب ان يُعطى شربة لمن أُصيبت طبيعته (معدته) بالقبض . ثانيًا الشربة تنفع الصفراء والبلغم والدود وغير اخلاط في المعدة والمصارين ، وفي سائر ما تلزم له التنقيات . فاذا رأيت في فم احد نشوفة او على لسانه وسخًا او في فمه طعمة مذقة وليس عنده قابليّة للأكل ، فيقتضي له شربة . وهذه الاشارات تحدث مع المرض وبدون مرض ايضًا . ويوجد فرق في الشربات ، فالذي يكون مصابًا بالحمّى لا يُعطى شربة حامية ، ومن لم يُصب بها فلا تضرّه الشربة الحامية . فهذه هي اشائر المنقّيات واعطاؤها

شرح ثانٍ في اصناف الشربات

شربة أولى : جلبا مدقوقة درهم ١ ، ملح طرطير درهم ٢ ، يُعزجان بالماء الساخن . فهذه الشربة هي للأخلاط الناتجة من غير سخونة (حمّى) .

شربة ثانية : سنامكي منقّاة من العود درهم ٤ ، تمزج في ٤٠ درهماً من الماء. وتُغلى كالقهوة وتُصفّى ، ويذوّب فيها ١٠ دراهم من افرنجي ، ودرهم ملح طرطير ويشرب منها على الريق قبل الاكل اذ يكون الماء لا يزال فاترًا بعد . وهذه الشربة تنفع في الحميات .

شربة ثالثة : ١٠ دراهم ملح انكليزي ، أم ١٢ درهم مع الماء الفاتر موضع ملح الطرطير ، أم يُوضع وحده في الماء الفاتر .

شربة رابعة : تمر هندي من ٤ الى ٨ دراهم يُغلى في أوقيتين ماء . وهذا من المكلّسات الباردة يُعطى في الحميات الصفراوية ، كل ساعة فنجان . ثم من ٨ دراهم الى ١٦ درهماً تُغلى في أوقيتي ماء، حتى يبقى أوقية ويُذاب معه درهمان من ملح الطرطير فيصير مسهلًا . وهذا ينفع في الحمّى الصفراوية .

شربة خامسة : يُؤخذ راوند من درهم ٢ الى ٤ تُغلى في ثلاثين درهماً من الماء . وهذا مسهل حام يعمل بعده قبضاً وله نفع في البرديات ويعطى ايضاً في مسهّلات الدم لمن يخرج منهم دم او غيره .

شربة سادسة : زبيب حلو من نقل ١٠ قمحات الى ٢١ قمحة، يُمزج بقليل من السكّر ويُؤخذ سفًّا . وهذا ينفع في النزولات التي هي من قِبَل دم. وينفع ايضاً للدود الذي في الباطنة ، ويُمزج ايضاً مع الجلبا ، ويوضع مع كل درهم جلبا عشر قمحات ويُؤخذ سفًّا. وهذا ينفع الدود والصفراء التي هي من قِبَل دم.

شربة سابعة : يُؤخذ جلبا درهم ١٠ وملح طرطير درهم٢ . تُذوّب في نصف أوقيّة ماء ساخن ويشرب منه على الريق . وهذا القدر يُعطى للمُسنّ في العمر ، ولا يجوز اعطاؤه في الحمّى الثقيلة. وانما يُعطى في الحمّى الثقيلة منضّج وهو هذا : ٤ دراهم سنامكي كما ذكرنا قبلًا .

شربة ثامنة : ان هذه الشربة هي مسهّلة للدم واكثر نفعها يكون للنساء اللواتي تأتيهنّ المادة ضعيفة ولا تسري إلا قليلًا . اولًا درهم ٢ صبرا شقرا ، درهم٢ مرّ حجازي ، درهم٢ زعفران شعري. يُدقّ كل صنف وحده ويُجبل في بعض نقط من العَرَق ويُصنع حبوباً، كل حبّة على قدر حبّة الحمّص، ويُعطى كل يوم عشر حبّات ، خمس في الصباح وخمس في المساء . وهذا لا يُعطى الا لمن كان جسمه غير دموي .

اما من كان جسمه دمويًا ويحدث له مغص ولا تمشي المادة ، فليستعمل هذه الوصفة وهي : اولاً يلزم له الفصادة من الرِّجل . ثانياً وضع العَلَق . ثالثاً يغطّ خرقة في ماء البابونج أو ملح الطرطير او ملح البارودي .

وايضاً ملح فوّه ، وملح طرطير ، وملح بارودي ، وسكّر على قدر هذه الاصناف . ثم تُسخّن وتُمزج بعضها ببعض وتُؤخذ سفوفاً ، في الصباح درهم ١ وفي المساء درهم ١ . وعوضاً عن الفوّه يوضع كبريت . وان وُجدت طفرة أم حبوب في من حصل له هذا المرض فيجب اذ ذاك وضع الكبريت. واذا كان المغص قويًا يُعطى من بعد الفصاد المنشتر والحنتيت اجزاء متساوية وتُجبل في عَرَق وتُعمل حبوباً ، او تُنقع في العَرَق وتوضع يومين أو ثلاثة في الشمس او قرب النار على يومين . وهذا نافع للريح السوداوي للنساء .

ثم يعرض لبعض الناس اصفرار وجه وتبجيج (وَرَم) ، فهؤلاء لا ينفعهم الا برادة البولاد ويوضع معها المنشتر والحنتيت ، اجزاء متساوية وتُعمل حبوباً مجبولة بالعَرَق او مع خواص الكينا او خواص عشبة القنطاريون .

شرح في المكلّسات المبرّدات

الاول : ان الحميات التي تكون من قِبَل قوّة الجسم يُعطى لها ماء الشعير وحده الممزوج معه درهم ١ او درهم ٢ ملح طرطير .

الثاني : ملح طرطير درهم ٢، ملح بارود درهم ١ يُمزج بعضها ببعض ويُذابان في رطل ماء .

الثالث : ليمون شامي (حامض) خفيف وسكّر وماء .

شرح في المكلّسات التي تُعطى في الحميّات الناتجة من ضعف الجسم

الاول : تمر هندي درهم ٨ سكّر او عسل درهم ١٦ ، تُغلى في رطل ماء لكي ينقص الربع ويشرب منه . وهـذا يُعطى في الحميات التي هي من قِبَل الصفراء .

الثاني : يُؤخذ من ماء الشعير نصف رطل وروح الكبريت ويوضع فيه لكي يصير حامضاً مقبولاً .

الثالث : يؤخذ من الماء الصافي نصف رطل يُذوّب في فنجان عسل ويوضع

روح كبريت لكي يصير حامضاً مقبولاً . ويجوز ايضاً ان تضع موضع العسل فنجان عرَق يانسونيّ فهذه جميعها مسهِّلة للدم .

اما التي يحدث لها نزف دم مستديم فيجوز قطعه . اولاً يُؤخذ شبّة بيضاء ثقل خمس قمحات وسكّر . تُؤخذ في كل مرّة سفوفاً .

ثانياً بعد هذه الوصفة يُؤخذ قِرفة أو روح القرفة مع الشبَّة أو وحدها . وأيضاً افيون او روح الافيون او عَرَق الافيون . ويجوز ان يوضع روح القرفة وروح الافيون وروح الخاز مع بعضها او روح القرفة اكثر. فهذه جميعها تقطع الدم وتنفع الذي يبصق دماً . وان الملح ينفع ايضاً لبصق الدم فيؤخذ منه سفوفاً مدقوقاً جيداً .

شرح اول في المقيئات

اولا المنتِّقات : مثل ملح الانتيمون وعرق الذهب وغيرهما لهما نفع في الاخلاط التي في المعدة كالصفراء والبلغم والدود والسمّ . ولا يجوز ان يُعطى المنتِّق بالنزولات التي هي من قِبل الدم والحمّيات التي من قِبَل الدم الا بعد الفصاد في ثاني يوم او ثالث يوم .

واذا كان في المريض قبض فيعطى حقنة قبل المنتّق . وأما الذي يكون متضائقاً من صدره فيعطى منتِّقاً خفيفاً مثل معجون بصل الفار . وهذا المعجون نافع لمن كان في صدره بلغم كثير .

شرح ثانٍ في كم يُعطى من الانتيمون منتِّقاً

أجيب انه يُعطى من حدّ ثقل حبَّة قمح الى حدّ ثقل أربع قمحات . وكل ثقل قمحة يوضع معها عشرة دراهم ماء على أربع مرَّات مقسّماً في كل عشر دقائق يُعطى منه الربع حتى يكمل ، وذلك على الرّيق في برهة واحدة .

ثم ان له منافع : اولاً انه يكون مليّناً ومفتّحاً ومعرّقاً ، فمع الملينات يوضع معها ثقل حبّة قمح ويشرب منه في الصباح الى المساء . ومع المفتّحات يوضع كذلك . واما مع المعرّق فيوضع ثقل حبة من القمح ويُعطى عند النوم . وهذا المنتّق يُعطى بحسب الفطنة على قدر الاجسام والعمر . فالذين هم صغار يُعطى لهم من حدّ ثقل ربع القمحة الى حدّ ثقل قمحة .

شرح ثالث في منتّق عرق الذهب

اولًا ان منتّق عرق الذهب يُعطى من حدّ ثقل عشر قمحات الى حدّ ثلاثين قمحة ، ويكون الشرش جديدًا ، ويُدقّ عندما يعطى للمريض . وهذا يعطى ايضاً عندما يصاب احد باسهال الدم اي الزنطاريّة وهـذا ليس هو مليّناً مثل الانتيمون بل انه يُخرج الاخلاط التي في المعدة من الفم فقط . وهذه الثلاثة منتّقات تعطى سواء في بعض امراض كالفالج ولمن شرب سمّاً ، وهي تنتّق بسرعة وتُخرج الاخلاط التي في المعدة فقط .

ثم انه يوجد منتّق لمن كان شارباً سمّ فأر او سليماني او غير سمّ واسمـه جاز ابيض . وفي لسان اللاتيني يسمّى فيتريولوم . وهذا يُعطى مسحوناً جيدًا مع الماء البارد . ويعطى منه مقدار ثقل عشر حبّات قمح الى حدّ اربعين حبة .

في النزلة الصدرية والقصبة الحمراء المسمّاة ذات الجنب

اولًا يلزم للمريض الفصاد اكثر من كل النزولات . ومن الملينات ، يؤخذ دهن لوز ، ومَنّ افرنجي ، وسكّر نبات ، وخيار شنبر ، اجزاء متساوية . تؤخذ لعوقاً ، ويشرب فوق ذلك ماء شرش الخاتمية فاترًا ولا يأكل او يشرب شيئاً باردًا . واذا بقيت فضلات من المرض اي شكّة ، توضع حرّاقة كبيرة ، موضع الشكّة .

في علامات نزولات الدم في النزل على العين اي الرّمد

أولًا يلزم له الوقاية من الهواء والضوء لانهما مضرّان للعينين . علاج ذلك : اذا كان من حمّى زائدة يلزم له فصد من شلش البدن في الزند ام من شاش الرأس ام علق اذا كان النزل خفيفاً . ويلزم الغسيل بماء الورد : فنجان بزر لعاب السفرجل خمس بزرات أم اكثر ، وخلّ مرسنك ثلاث نقط ام اربع . تُمزج ببعضها ويغسل بها كل دقيقة مرّة ، ويغط شرطة ايضاً وتوضع على العين .

ومن المنقّيات : يؤخذ معدّدات مثل ملح البـارود وملح انكليزي وملح طرطير وتمر هندي ومَضل وزرورات . واذا كان مصاباً بوجع زائد في رأسه يعطى شربة غاريقون وتربُل ومَنّ افرنجي . شربة .

اما التي يصير لها نزف دم بضعة ايام متواصلة ، فيجوز قطعه ، اولًا : يؤخذ شبّة بيضاء ثقل خمس قمحات ، وسكّر تمزج وتُتناول سفوفاً في كل مرّة .

ثانياً . اليك هذه الوصفة : يؤخذ قرفة او عَرَق القرفة او روح القرفة مع الشبّة او بدونها .

ومما ينفع ايضاً : الافيون او روح الافيون او عَرَق الافيون . ويجوز ان يوضع روح القرفة وروح الافيون وروح الجاز بعضها مع بعض، او روح القرفة وروح الافيون فقط . وكلما وُجد خطر يعطى منها كل ساعة او ساعتين او ثلاث او اكثر . فهي لقطع الدم كما ذكرنا قبلًا . واما الفصاد ينفع الذينهم في نصف العمر اكثر من الذين هم في سنّ الشبوبيّة والشيخوخة . ويجوز ان يُفصد الرجل اكثر من الامرأة ، ومَن كان جسمه دقيقاً يجوز له الفصاد اكثر ممَّن كان جسمه سميكاً .

٥

اما ترتيب العَلَق فيعلّق من ٢ الى ٨ علقات في مرة واحدة . واذا لم يمسك العلَق يجوز ان يُجرح الموضع في الجسم لكي يقدر ان يمسك . ولا يجوز رفع العلقة من موضع مَسكها ما لم تقع هي من ذاتها ، وبعد ذلك تُمسك من طَرَفها وتُشد (تُمصّ) لكي يخرج الدم من فمها .

وللعلَق نفع ايضاً : اذا كانت المرأة قد قُطعت العادة عنها فيوضع العلَق في الجنب من الداخل ام قرب الرّحم . ثم ينفع العلَق في البواسير اذا انقطع الدم عن المريض في الخروج وحصل له من قِبَل ذلك شكّة في الخاصرة او نزل على صدره فيعلّق العلَق على المخرج .

واذا صدف ودخلت عَلَقة في الفم فيوضع فيه ثلج فتخرج . واذا دخلت في المخرَج ام غيره فيوضع له ماء وملح فتموت العلقة .

صفة دواء ينفع المرض المسمَّى داء الرجفة

ويُسمَّى ايضاً هزّ الحيط ، ويوجد منه فرع يسمّى القَرَح او القَرحة . وهذا المرض في الغالب يحدث للصبيان الصغار ويكون سببه من قِبَل الاسنان او من قِبَل دود في الباطنة . يُؤخذ مسك ربع درهم ، وسكّر ربع درهم . يُسحق ويُمزج ويؤخذ مفوفاً بماء الزهر وماء الورد كل ساعة فنجان .

ويوجد صفة دواء آخر وهو : يُؤخذ من خواص حشيشة البنج ثقل قمحتين

او ثلاث مثلما يؤخذ من الافيون . وينفع الغسيل ، اي غسيل كل الجسم في ماء الرماد (الصفوه) .

شرح في الحرَّاقات التي تصنع الحورة فقط

اولًا ان الحرَّاقات لها نفع في جذب بعض موادّ مثل الريح . واذا كان المريض في اول المرض في بُحران، توضع الحرَّاقة على الرقبة من الوراء في اثناء مرض البُحران وعلى الصدر . ولها نفع اذا كان ثمَّ نزولات على العينين . وترتيبها الى حدّ الستّ ساعات فيصدر منها حورة فقط ، والى حدّ اثنتي عشرة ساعة تسحب تحملًا مثل الماء (صديدًا وقيحًا) . ومن كان حاصلًا له ريح في الورك يجب ان تبقى الحرَّاقة ٢٤ ساعة ، وبعد ان تُرفع يوضع موضعها ورق العنب أم دينة الجدي (عشبة تُسمّى بهذا الاسم) ام سمن زبدة بدون ملح . واذا صار وجع زائد في الجرح والحورة يوضع صفار بيض يُجبل بأربعة دراهم زيت حلو ويدهن وبهذا يختم الجرح . واذا لم تحصل افادة ، يُعمل هذا الدهون وهو :

ماء أوقية ، خلّ مُرسنكي درهم١ ، عرَق درهم٢ ، ويُخلط . ويوجد شيء اثقل من الماء وهو قشر السنديان ، يُغلى ·وضع الماء ويُلطخ فاترًا .

ه

وللحرَّاقات نفع لمن يحدث له نزول على العَصَب والبولة ، توضع على صلب الظهر . ويجوز ان توضع اثناء الحميات ليلة الاسابيع فيعرق اذ ذاك المريض ويشي بوله . اما النساء الحبالى فلا يجوز لهنّ وصف الحرَّاقات ، وبالاكثر لمن كانت لهنّ عادة ان يروحنَ (يُستطن) ، ولكن توضع لهنّ موضع الحرَّاقات خميرة الخردل . وهذه صفتها :

بزر خردل مدقوق وخميرة عجين قدر بعضهما . خلّ حادق (ثقيف) بقدر اللزوم وتُدهن به خرقة وتوضع على الرجلين ، كما ذكرنا، من المساء الى الصباح .

اما الاجزاء التي تُحدث الحوره من دون الحرَّاقات فهي : روح الدبَّان الهندي . ملح انتيمون . بزر خردل وغيره . فروحُ الدبَّان الهندي ينفع في النزولات الخفيفة التي هي من قبل ريح ، يُمزج بستة دراهم زيت ، ودرهم ١

كافور سلطاني ، ودرهم٢ روح النشادر ، ودرهم ٢ روح الدبان الهندي . وينفع أيضاً لوجع الصدر . واذا كان موضع الزيت دهن لوز حلو او مرّ يُدهن بهذا الدهون الصدر ثم توضع فوقه لبادة صوف .

وان دهن بزر الخردل له نفع في الحميات . يوضع على مشط الرجل فيسحب الحمى . ويُدهن به للتزولات التي على العصب . وترتيب الدهون : صابون أوقية(١) . دهن غار درهم١٠ . بزر خردل مدقوق درهم١٠ ، تمزج جميعها وتوضع على موضع النزل .

نسخة شربة عظيمة من مجرّبات عيسى افندي حكيم باشي السلطان احمد

وهي لا تُبقي بعدها علّة ، وتُزيل القبض ، وتصفّي البدن ، واسهالها لطيف ، وتُزيل الجرب والحكّة وتشفيها، وكذلك الدمامل والجراحات الناتجة عن غليان الدم والبلغم والسوداء والصفراء ، وتحلّ القيء والريح والقولنج والبثرات والقروح الخارجة والحميات الدموية وغيرها وتشفيها ، ووجع المفاصل وضرباتها ، وتسيّل الدم العفن المحترق الذي يضيق منه خلق الانسان وتصغر نفسه وهو مركّب فوق القلب فيتزل مثل القطران. وهذه اجزاء الشربة المذكورة: خربق اسود درهم ٣ . تربُل ابيض مجوَّف درهم ٥ . راوند درهم ٤ . سنامكي درهم١٣ . محمودي درهم ٣ ونصف . يُدقّ كلّ بمفرده وتسبيبها (تربيبها) تضربها) بدهن اللوز الحلو وتدعها يوماً وليلة . وبعد تُعجن هذه الاجزاء بثلاثة امثالها عسل نحل منزوع الرغوة مقوّم ، ويعطى منها ثلاثة دراهم او سبعة دراهم ، وكلما قدمت زادت حسناً وأبرأت من نفخة الجوف ومن سخونة البرد والحمى التي طالت مدّة سنتين . هذه هي بعض اوصاف هذه الشربة فانها تُبرئ من الامراض . ولكن تُعطى منها الشربة في زمان الربيع والخريف وقت السحر ، وفي زمان الصيف نصف الليل ، وفي زمان الشتاء وقت الظهر . توكلتُ على الله .

(١) أوقية طبيّة ، وهي ثمانية دراهم

وصفات متنوعة

وصفة نافعة لبرودة المعدة وتليينها وتقويتها ومساعدتها على الهضم

كبابه صيني أي دارصيني ، يؤخذ منها الربع ومن السكر ثلاثة ارباع . نافعة كما ذكرنا .

١ – وصفة نافعة للريح

خولنجان عقاربي درهم٣

٢ – وصفة للاستسقاء والورم مجربة

تفرم حشيشة القسطا كفرم التتن (الدخان) وتُغلى بالزيت الحلو (الزيتون) في وعاء من فخار وتوضع في مرطبان فخار مسدود الفم ٢٤ ساعة (في الشمس). يدهن بها الورم فتشفيه بعون الله ولو كان ورم استسقا . مجرب .

٣ – فائدة للطرش

تؤخذ مرارة خلد وتُخلط بالزيبق ويُقطر منها للأصم يبرأ .

٤ – ايضاً للطرش

مرارة خلد ودهن زنبق او دهن غنم . امزجها جيداً واقطر في الأذن ان هذا الدوا عجيب النفع وليس من دواء أفعل منه ولا أصح .

٥ – ايضاً للطرش

دق ورق الحنظل الاخضر واعصر زومه واقطر منه في أذن الأصم يسمع حالاً .

٦ – ايضاً للطرش

خذ حنظلة وقوّرها وضع فيها زيتاً وضعها في النار حتى تحترق ثم ارفعها واقطر في الأذن من هذا الزيت السخن ، على قدر ما تطيق احتماله . قيل انه مجرب .

٧ – قطرة ايضاً للطرش

خذ كبابه (كبكابة الشوك) وضعها فوق غربال وضع تحته وعاء وغطّها فتبول في الوعاء ، فخذ من بولها هذا واقطر منه في أذن الاصم تنفتح حالاً . مجرب .

٨ – وصفة لوجع الاذن

خذ بصلة كبيرة وقوّرها واملأها زيتاً وضعها في رماد سخن ثمَّ اقطر من هذا الزيت في الأذن . وان غليتَ بهـذا الزيت ثوماً وقطرتَ منه للأصمّ برأ . مجرّب .

٩ – صفة معجون الكاناليكون (١)
نافع للسعال والصدر والطحال

كزبرا خضرا درهم٤ تُغلى في ط٤ (رطل ، اي ٣٢ درهم) ماء حتى يبقى ط١ . يوضع فوقها سكّر ابيض ط٣ مصفًّى بزلال بيض ، وتُغلى حتى تتقوَّم مثـل الأشربة . هذا نافع لعلّة السعال والصدر والطحال .

١٠ – صفة معجون كاناليكون غيره

لبّ خيار شنبر ق٣ . تمر هندي ق١ . ملح طرطير ق١ . ورق سنامكّي منقّى ق١ . جلبا ق½ (نصف أوقية) . راوند جيّد درهم ٢ . انيسون ذو اللون الاخضر درهم ٢ . قرنفل درهم٣ . قرفه درهم٣ . عسَل جيّد ق٩ .

اصنع الخيار شنبر والتمر الهندي شراباً واخلط بقيّة الاجزاء بعضها ببعض خلطاً جيّداً واعطِ منه مقدار عشرة دراهم او ٩ او ١٢ درهماً .

١١ – غيره

عسَل الخيار شنبر ق٣ . تمر هندي ق١ . ملح طرطير ق١ . جلبا ق½ (نصف أوقية) . راوند درهم ٢ . عسل منزوع الرغوة ق١½ (أوقية ونصف).

خيار شنبر لبّ درهم١٥ ، يوضع عليه ماء حارّ قدر ق٣ ويُصفّى . ثم يؤخذ زهر بنفسج نحو ٧ دراهم يُغلى ويضاف فوق ماء الخيار شنبر ويُغلى جملةً حتى يبقى نحو اوقية تصد منه ويؤخذ مرّة او اكثر بمقتضى اللزوم .

١٣ – لصقة للفالج

نخالة وشره ودبس وزيت وخردل . تُمزج وتوضع بعد الدلك . فالريانا درهم ١٢ توضع في أربعة فناجين ماء نحو ساعـة ويشرب فنجانين بكرةً وفنجانين عشيّة .

---

١) قد مرَّ ذكر هذا المعجون في هذه « الرسالة المثنية للامراض المشكلة ».

١٣ – مرهم لعرق النسا

زيت وورق المازريون يُدق ناعماً ويوضع او يُفرك به .

١٤ – لداء المفاصل

بعد التشطيب استعمال ماء العشبة القطرية والدهن بزيت عتيق .

١٥ – علاج لوجع الاذن البارد والحار

عصارة قثا الحمار ، يُقطر منها في الاذن نافعة لوجعها البارد . وكذلك دهن الخروع وعصارة السداب (الفيجم) ودهن الورد .

اذا طُبخ نسيج العنكبوت في دهن ورد وقُطر منه في الاذن سكّن وجعها الحارّ .

دهن اللوز ينفع لوجع الاذن البارد . وكذلك دهن الغار نافع له ايضاً .

١٦ – علاج لبياض العين

الكحل باللؤلؤ . والكحل بالبورق . والكحل بالمرجان يجلو آثار القروح .

قشر بيض الدجاج ساعة بيضه ، اذا سُحق ناعماً ونُفخ في العين يُزيل البياض .

ورق العوسج يُدقّ ويُقطر من عصيره في العين سبعة أيام متوالية يُزيل البياض القديم من العين .

كحل العقيق نافع ايضاً .

السندروس اذا حُكّ على المسن بندى القصب وكحل به البياض أبرأه .

١٧ – علاج الزرقة في العين

وهي جمود الرطوبة الجليدية وانعقادها (وتعقدها) ويحدث عنه عماء . يُخلط الزعفران بماء ويُكتحل به .

عصارة شقائق النعمان تُسوّد حدقة العين وتنفع من الزرقة .

عصارة الحنظل الرطب اذا قُطر منها في العين الزرقاء سوّدتها .

١٨ – صفة مرهم يُذهب اللحم الفاسد وينبت اللحم الصالح

مرتك يُدقّ ناعماً ويُضاف اليه الصبر ويُعجنان بسمن بقريّ وخل ويُستعمل .

١٩ – صفة معجون لقطع السوداء

صبر . وحب الرشاد . وحبة سودا . وفلفل . وزنجبيل . واهليلج أسود . أجزاء متساوية . يُدقّ الجميع ويُعجن بعسل الرغوة ، ويُستعمل على الريق .

٢٠ – صفة سنوف يقطع البلغم ويقوي المعدة ويطرد الريح والرطوبات

فلفل وزنجبيل سواء . يُضاف اليها سكّر أبيض بعد دقهِ ويُستعمل ثلاثة دراهم منهُ على الريق ، وثلاثة دراهم عند النوم (مجرب).

٢١ – للشهوة الكلبية

وهي ان يأكل صاحبها فوق الشبع وهو يشتهي الطعام فيستحيل ويُهضم قبل عادتهِ فيجوع . وسببهُ زيادة خلط الصفراء المحتقن في المعدة .

علاجهُ : شرب عصير الليمون بالسكر ، والغداء خبز الحنطة مع الجلاب، وأكلُ ما كان باردًا رطبًا وترك ما سواهُ .

٢٢ – في الاستسقاء

الاستسقاء حيوان يورم جميع الجسد ويعظم البطن . وهو أقسام . الاول رطبٌ وهو عن بلغم في الصدر أو في الرئة .

علاجهُ : حلبه تُغلى على النار اربع او خمس مرّات، كلّ مرّة بماء جديد ، وتُصفّى ثم تُسحق ويجعل عليها دقيق الحنطة وتُعمل جبنًا باللبن البقريّ والسمن أو السكر . غداء وعشاء .

الأول لحميّ: وهو اذا جعلتَ اصبعك عليهِ(على الورم)انخفض ولا يرتفع الجلد إلّا بعد ساعة . وهو أهون أنواع الاستسقاء . وقد يكون الاستسقاء عن حرارة .

الثاني وهو الطبليّ ، اذا ضربتَ بيدك عليهِ خرج له صوتٌ كالطبل . وهو أمرُّ من الاول .

الثالث الزقيّ : وهو وَرَمٌ عظيم كالزقّ المنفوخ مع رقد الجلد وظهور عروق خضر . واذا تحرّك صاحبهُ او تقلّب تخضخض بطنهُ كالقربة التي فيها اللبن ، وهو أردأها . وسبب الجميع خلطٌ بلغميٌّ دمويٌّ .

علاجهُ : تُنقع الكزبرة في الخلّ يومًا وليلةً ويشرب على الريق ويطلى بها ، والغداء المزورات (لعلَّها البزورات) على ثلاثة ايام ، ثمَّ يشرب مسهل البلغم ويستعمل الثوم والعسل على الريق .

٢٣ – صفة شربة تُزيل العفن والجرَب والدمامل والاخلاط الأربعة
من مجرّبات عيسى افندي حكيم باشي السلطان احمد

خربُق أسود درهم ٣ . تربُل ابيض مجوّف درهم ٥ . راوند درهم

سنامكي درهم ١٣ . محمودي ٣ دراهم ونصف . يُدقّ كلٌّ منها بمفرده وتُكبس جميعاً بدهن اللوز الحلو وتُدعك يوماً وليلةً . وبعده تُعجن بثلاثة أمثالها من عسل النحل المنزوع الرغوة . ويُؤخذ منها ثلاثة أو سبعة دراهم

٢٤ – صفة مرهم لتفتيح الدمامل

يُؤخذ حبُّ كتّان وصابون وقصب وحليب بنت ، اجزاء سواء . تُدقّ وتوضع لصقة .

٢٥ – صفة مرهم لتفتيح القروح

مرسنك وسبيداج وصابون وزيت ، يُغلى على نار لينة .

٢٦ – لبرودة المعدة

قرفة درهم ١٠ . قرنفل درهم ١٠ . كمّون درهم ١٠ . بزر شمره درهم ١٠ . حَبّ الحصاليان درهم ١٠ . كوكلان نصف أوقية . جوزة الطيب ١٠ دراهم . عسل أوقية . يُدقّ كلُّ جزء بمفرده . وتجبل جميعاً بالعسل جبلاً جيّداً محكماً . يُؤخذ من هذا المعجون مقدار لوزة في الصباح ومثلها في المساء .

٢٧ – صفة لصقة للمعدة

مصطكي درهم ٥ . زلال بيض وشبّة درهم ٢ ، وطين ارمني درهم ٢ تُخفق جميعها ببعضها وتوضع .

٢٨ – صفة لصقة أيضاً للمعدة

تمرتينا درهم ١٠ ، مُرّ حجازي درهم ٣ ، صبرا شقرا درهم ٣ ، افستين مسحوق ناعماً درهم ١٠ . تمزج هذه الاجزاء وتُسخّن على النار وتوضع لصقة على المعدة .

٢٩ – تركيب حبوب لقطع الدم

راوند درهم ٧ $\frac{1}{2}$. طرطير درهم ٢ $\frac{1}{2}$. يانسون مسحوق درهم ٢ $\frac{1}{2}$. تُجبل هذه الاصناف بخمر جيّد وتُعمل حبوباً ، الحبّة تكون بقدر الحمّصة . يؤخذ منها صباحاً ، حبّة عدد ٧ أو ١٠ .

٣٠ – وصفة كحل للعين

برادة ذهب درهم ٢ ، لؤلؤ درهم ١ ، صبر اسقطري درهم ١ ، سكر

ابيض درهم ١ ، مسك درهم ١ ، كافور درهم ١ . وخذ من الأثمد مقدار جميع هذه الاجزاء ، واسحق الجميع ناعماً ويُرفع الى الاناء الزجاجي ، ويكتحل به .

٣١ – لذهاب الشعر

اعجن الأفيون والبنج بالخلّ وادهن .

٣٢ – علاج للشعر أيضاً

انقع بزر قطونا بالزيت او السليط يوماً وليلةً ثمّ يُعصر اللعاب على طيب كالميعة يوماً وليلةً ثمّ يوضع على موضع الشعر .

٣٣ – فائدة اولى لجفنة الكرْم

من طوَّق شجرة كرْمٍ بطوقٍ من رصاص أسود لا يسقط من حملها شيء .

٣٤ – فائدة ثانية للحنطة

اذا خُلطتْ الحنطة برماد شجرة الطَّرفاء بقيت سنين كثيرة بدون تسوّس .

تنبيه : ان الثالريانا هي لسدد العروق . واللودنُم او زيت الخروع للمغص .

٣٥ – فائدة في الموازين

كل ستة عشر حبَّة خردل هي ثقل حبّة خرنوب . وكل ستة عشر حبَّة خرنوب درهم . والمثقال درهم ونصف . والصاع ثمانية ارطال . والرطل ٣٨ درهماً . والدرهم ١٤ قيراطاً . وكل قيراط خمس شعيرات . والكيلة ١٤ رطلًا . والدانق سدس درهم وهو وزن ثمان شعيرات .

﴿ فصل ﴾

في ذكر بعض الاثمار

التين – اذا أُكل على الريق فتح مجاري الغدد ونقعَ قصَبة الرئة ، إلّا انهُ يُحدث انتفاخاً في البطن .

العنب – ان العنب البايت بعد قطعه بيوم هو أجود من المقطوف بيومهِ .

الزبيب – هو صديق المعدة والكبد ، ويحدّ الذهن ؛ وينفع من كانت معهُ أخلاطٌ بلغميَّة ، إلّا انهُ يُحرق الدم الصالح .

الخوخ – أجودُهُ هو المكيّ الزهري . ان الناضج منهُ ينفع المعدة .

الاجاص – خلطهُ غليظ .

الكمثرى – إنهُ يقوّي المعدة الضعيفة ، لكنّهُ يُحدث القولنج اذا أُكل قبل الطعام .

الرمّان الحلو – يليّن الصدر ويصلح للسعال والباه ، لكنهُ يحدث ريحاً . يُدفَعُ ضررُهُ بالرمّان الحامض .

الجوز – يفيد اوجاع الصدر ، والقصبة ، والسعال المزمن ، وسوء الهضم ، وأورام العصب والثدي لا سيما اذا شُوي وأُكل حارًّا .

الفستق – ينفع المعدة ويقوّي سدد الكبد وينقّيها ، وينقّي الكليتين والمثانة

منافع قشر الجوز الاخضر

اذا عُصر وغـلي حتى يغلظ كان ترياق البثور ، وداء الثعلب والاورام طلاء بالعسل .

انه يحمّر الوجه والشفتين طلاء

وجزء منهُ مع مثله من اوراق الحناء ، اذا طُليَ بهِ قطع الثآلات والصراع وكلّ وجع بارد كالفالج والنقرس .

ورمادهُ ينفع من الدمعة والجرَب كحلًا .

واذا طُبخ رطباً بالخلّ وخَبَث الحديد ، أو نُقع اسبوعاً ، سوّد الشعر وحسّنهُ وقوّاهُ .

وقشرهُ الصلب اذا أُحرق واستيك بـهِ ، بيّض الاسنـان وشدّ اللحم المسترخي .

وقشر أصلهِ اذا طُبخ بالزيت حتى يهتري ، كان طلاء جيّدًا للبواسير وأمراض المقعدة .

واذا استيك بهِ نقّى الدماغ وأذهب النسيان .

واذا طُليَ به حسّن اللون .

الفقرة المأخوذة عن الاطبّاء والوصايا التي يُستعان بها
على حسن المداواة وجودة تدبير المرض[1]

قالوا : إنّ حفظ القوّة أحرى وأولى من مداواة المرض اذا كانت مداواة المرض تثيرُ ضعفاً في القوّة ، اذا كانت القوّةُ هي المُزيلة للأمراض . وللقوّة مع المرض احوال ثلاث :

إما ان تكون أقوى من المرض فتقهرهُ ولا تحتاج الى معونة الطبيب كما نرى جماعة من المرضى قد برئوا من الأمراض بلا دواء ولا طبيب .

وإمّا ان تكون ضعيفةً فيخشى على صاحبها من العطب ، فتكون الحاجة في هذه الحال ماسّةً الى معونة الطبيب .

وإمّا ان تكون معادلةً مساويةً للمرض فيُتّقى من ظهور المرض عليها ويُحتاج الى معونة الطبيب لحراستها لتبقى على ما هي عليه . واعتبار حال القوّة يُعرَف من النبض والعينين كما نبّه عليهِ بقراط .

وقد مثّلوا القوّة ايضاً برأس المال ، والبرء بالربح ، والطبيب بالتاجر . فينبغي للطبيب ان يكون كالتاجر الكيّس اذا رأى وجهاً للربح باع وإلّا احتفظ برأس المال .

وقد شُبّهت القوّة ايضاً بزاد المسافر . والمرض بقدر القوّة فيهِ . ومنتهى المرض بالموضع المقصود اليهِ . فينبغي للعاقل ان يعدَّ من الزاد في سفرهِ على قدر بُعدِ مسافتهِ الى حين وصولهِ الى موضع قصدهِ ، لأنهُ ان عَدِمَ الزاد قبل وصولهِ هَلكَ ، وان كفاهُ سَلِمَ . كذلك القوّة ان ثبتت الى منتهى المرض سَلِمَ المريض ، وان ضعفت قبل منتهى المرض خيف عليه ، فلذلك صار حفظ القوّة بما صُرفت العناية اليهِ ووقع الانعطاف عليهِ . واذا أمكن تدبير المريض بالغذاء فلا يُدبّرنّ بالدواء . وان أمكن بدواء خفيف ضعيف فلا يُتعدّى الى دواء أقوى . وان تهيّأ مداواته بالدواء المفرد فلا يُعطى الدواء المركّب .

ـــــــــــــ

١) اخذنا هذه الفقرة عن كتاب «الاقتضاب» هذا وهي خاتمة فصولهِ ويأتي بعدها تفسير اسماء بعض اعشاب وأدوية طبّية عربيّة . وقد أضفنا اليها ما وقفنا عليهِ منها في غير هذا الكتاب .

ولا ينبغي استعمال الأدوية الغريبة المجهولة قبل تجربتها . ولا تعتمد على دواء جرّبهُ النساء والجهّال ، فربما وافق طبعاً ونافرَ آخر . وينبغي الحذر من اعطاء الأدوية القويّة الإسهال والتنقية إلّا عند الضرورة. وبعد ما يقابلها ان فُرضتْ اذا اتفق ان وُجد مرضانِ متضادانِ في بَدَنٍ يقتضي لكلِّ واحدٍ منهما تدبيرٌ مضادٌ للآخر . فينبغي ان تقصد علاج أخطرهما من غير اهمال الآخر . وهكذا ان اتفق وجود عَرَض يضاد تدبير المرض وكان العَرَض يُخشى منهُ حلُّ القوّة ،فيُقصَد اولًا علاج العَرَض فاذا زال رُجع الى مداواة المرض كما يُفعل في القولنج باعطاء الدواء المخدِّر عند شدّة الوجع ، فانهُ يزيد في المرض لكنهُ ينتفع بهِ في تسكين الوجع المضعِف للقوّة .

ومتى اشتهى المريض شيئاً شهوةً شديدةً فلا يُمنعنَّ منهُ اصلًا بل ينال منهُ اليسير ويُخشى من تناول الكثير. فان القليل اذا كان رديئاً غير مضرّ ويُعدَّل مع هذا ما ينال منهُ اذا احتاج الى تعديل . فان المريض اذا لم يُرخَّص لهُ في أخذ اليسير مع شهوته فربّما دعته شهوته ، لا سيّما اذا كان شرهاً او جاهلًا ، الى تناول الكثير مع مضرّتهِ .

ومتى اتفق دواءانِ احدهما تميلُ اليهِ الشهوة والآخر تنفرُ منه ، وكان الذي تنفرُ منهُ أنفع ، فينبغي ان يُداوى بالمشتهى ، لأنه لولا انَّ هناك نوعاً من مناسبةٍ لما اشتهى. وبالعكس اذا احتيج الى استفراغ خلطٍ من الأخلاط في مَن لا يُحسن تناول الأدوية الكريهة كالملوك مثلًا ، فينبغي عند الحاجة الى استفراغ الخلط الصفراويّ ان يُسهَّل بشراب الورد المكرَّر بالثلج ، أو بالمحمودة ، أو بالجلاب ، أو بماء الاجاص .

وعند الحاجة الى استفراغ خلطٍ غليظٍ يُستخرج بالتربد الحديث والغاريقون في احد الأشياء المذكورة .

وعند الحاجة الى استفراغ الدم فليس من دواء غير الفصد . وفي الفصد فيما لا بُدَّ منه من علاجٍ بالحديد ، فليس من ثمَّ غير الرفق وترقيق الآلة وتحديدها وتجويدها ومَسح المبضع بالدهن . وقبل الفصد ، في الشتاء بالماء الحارّ فيكون الماء اقلّ سخونةً وينبغي سؤال المريض والبحث عن احوالهِ وملاحظته، فربّما اتفق ألّا يمكنهُ ان يعبّر عمّا يعتريهِ من الأعراض والآلام متى كان المرض

غامضاً او مُشتبَهاً بهِ ولا يمكن الوقوف عليهِ بالحدْث ولا بطريقة من طرائق المعرفة ، فينبغي ان لا يشتغل الطبيب بعلاج ولا بتبديل مزاج ولا توزيع خلط بل يحفظ القوَّة بالغذاء المعتدل ، فاذا كان المريض لا يشتبه فلا ترجع القوة ان كانت ضعيفة . فان كانت القوة ضعيفة فيُغذَّى المريض بغذاء وان كان لا يشتبه ، ويداوم على ذلك الى ان تتقرَّر حقيقة المرض .

ولذلك ينبغي على الطبيب ان يجتهد في تدبيره ، فلا يُدبِّرُ بما لا يأمن مضرَّتهُ . ومتى اشتبه بسبب مرضٍ ولم يتضح حالهُ فيمتحن ذلك بان يُسخِّن العضو أو يبرّدهُ أو يُجفّفهُ أو يرطّبهُ بغير افراط ، أو غير ذلك مما يوضح أمرهُ . ولا يكون خطرٌ في تدبيره هذا . ويمكن تدارك ما عساهُ ان يُحدثهُ من ضررٍ .

وهذه هي آخر المسائل الطبيَّة المشتملة على جميع علم الطبّ ، رويناها قصدَ ان تكون مدخلًا للمبتدي وتذكرةً للمنتهي ، وفي ذلك كفاية .

تفسير اسماء بعض اعشاب وأدوية طبيَّة غريبة[١]

أسد الأرض : هو المازريون وعود الخِلّ . أورسيا : السوسنّ الأبيض . ايرسا : أصل السوسنّ الاسمنجوني . اسقيوس : بزر قطونا . أماريقون : الاقحوان الأبيض . اماريطون : الاقحوان الأصفر . القيسوم : البرنجاسف ويُعرف بمسك الجنّ ، والافسنتين نوعٌ منهُ . الهيفان : الجرجير . اقليا : خَبَث كل جسد ذائب . آذان الفار : المردكوش . اصفر : القبّار . اشترغاذ: شوك الجمل . الزرشك : البربريس . اطريلال : رجل الغراب . أسرب : الرصاص الأسود . اغاريقاً : الغاريقون . الراتينج : علك الصنوبر (الصمغ) . الحشيشة الروميَّة : الاسقولوقندريون . الحشيشة الفارسيَّة : البنج . أومانا : عصارة ثتا الحمار . أدريو : اصل القطينا . اذناب الخيل : لحية التيس . بهرمان : العُصفر . شعر الغول : كزبرة البير . بوزيدان : خصى الثعلب .

بودنج : الحشخاش الأحمر . بقلة الانصار : الكرنب . تاهوت : الشبرم . تودي : نوع من الرَّشاد . تفاح الجنّ : اللفاح . الترب : الفجل . كزمازج :

١) كثيرًا ما تردد هذه الأسماء في كتب الطبّ العربية الخطية فيجهل المطالع فهمنا ، لذلك اثبتنا هذا الفصل تسهيلًا لمعرفة بعضها ، وقد أضفنا اليهِ ما جمعناه منها .

الكزمازك (الطرفا) . توم الحيَّة : التوم البرّي . ثلاثة اخوة : يُراد بهذا اللغز الفلفل الأبيض . الخمسة اخوة : الهليلجان الكابلي الاصفر والاسود والبليلج والاملج . سطوريون : النفل ويُسمَّى بالفرنجي طريفيليا (حندقوق) . ثمرة فارسيَّة : الخوخ . جوز مائل : نوع من السورنجان . جوز جندم: تراب العسل وهو حَبٌّ كالحمص ينبت بين الصخور ويُسمَّى ايضاً خو الحَمَام .

جلنجبين: الورد المُربَّى بالعسل . حيف الماء : المردكوش . الحشيشة الدُّوريَّة : كفّ النسر . حَسَك : حمُّص الجبل . الشونيز: الحبّة السودا . الحاشا : هو جنس من الصعتر . الحمحم : وهو بالفارسي كاودكان ، اي لسان الثور . الحَضَض ، منهُ مكّاوي ومنهُ هندي : كحل يُقال لهُ الحولان . الخلاف : الصفصاف . حجر الطلق : كوكب الارض وهو حصاء البو . الحاما : قيل تفاح الجنّ . خرنوب هندي : خيار شنبر . خماليس : البابونج . خيتوم : حَبّ القطن . بردانا : ويقال لهُ بلنجان . القواقوى : القطرب الكبير . غوتاغينا : رُبّ الراوند . اسقبوزا : الفيقوع . الشونيز : حبّة البركة . الأسقيل : بصل الفار . أنفجة : مجبنة . أشنه : الشيبه . اسطوخودس : الشمنيز . أنجرة : القرّيص . الاجاص : جنس خوخ شترغاد : شوك الجمال . فقاح السورنجان : زهره . بلبوس : بصل الزير . بوصير : آذان الدب . جار : عين البقر . برشاوشان : كزبرة البير .

بازروج : حبق حوك . فيليون : فرفحين برّي . بقلة الحمقا : فرفحين برّي . بنجيخت : البوشريح . بسعانج : أضراس الكلب . بيش : الشركوان . بسباسه : جوزة الطيب . باقلي : الفول . بطباط : عصا الراعي . دارصيني : القرفه . دهمست : شجرة الغار . الجرجير : قرّة الماء . الحرف : الرشاد . هزارطهن : الشوفان . هوفيلوس : خسّ الحمار . حسك : اضراس العجوز . طين الكرم : الحمار (نوع من التراب الأحمر) . الكندر : البخور . الكبر : القبّار . الكثرى : النجاص . اللخنه : الملفوف . لسان الحمل : آذان الجدي . السليقه : ذَنَب الفارة . الميختج : الدبس . الملوخيا : الخبيزه . السرخس : الخنشار . سورنجان : الحرضه . الفودنج : الزوباع . القيسوس : المبيشقة . الرازيانج : الشومر بسباس . فاونيا : عود الصليب . بنات وردان : جيز يُسمَّى الدحيرجي . الراتينج : القلفونه . الراسن : جناح النسر . الاينون : وريقة ياسم . الشيطرج :

هي الخامشه الشامي ، والخامشه هي القصب . العصرب : بَدَلَهُ القوة . حماما : اكسونا . حسك : ضرس العجوز . اللبلاب : البقله البارده . السداب الفيجم . السعرينا : حشيشة المغربيَّة . القيسوم : العبيثران . الفودنج : نعنع الماء . سليخه : قشور شجرة القطران .

الورس : الكركم . دار شيشعان : القندول . مسطرا مشيع : الزوفاء بدله بابونج . الراسن : الزنجبيل . أدريون : دُوَّار الشمس . الحاجب : سراج القطاله . العاقول : شوك الجمال . كاكنج : عنب الثعلب . شقردين : ثوم بري . الشيار : البقس . الشنج : الجزون . الشهدانج : شجر القنَّب . شوكة البيضا : البازاورد . عاقر قرحا : الطرخون . الميوزج : زبيب الجبل . ذرنبا : عروق الكافور . القشش : العنب الحالي من النوى . كمادريوس : بلّوط الارض . كافيطوس : صنوبر الارض ، وهو كحيّ العالم . الخرنبل : كفّ النسر . براد شبيشاتو : الزِّيبق .

د

الدهمش : الغار . عاقر قرحا : عود القرح . ماطورين : خصى الثعلب . فانيد : سكّر نبات : تافسيا : بزر السداب (الفيجم) . اكليل الملك : قرينات الحيَّة . الاقسطوس : البيلسان . المرسين : الآس (الريحان) . سالوبا : قصعين . اطرانون : قثا الحمار . كاوزان : لسان الثور . السياليوس : الكرفس . الارجنتينا : حشيشة الفضة . الاغريونيا : الغافث . ابراطوريا : حبّ الملوك : اكواتريا : ما التّرياق . السيالوس : الكرفس . الترنجبين : المنّ الفرنجي . الشجم : اللفت . الجاوروس : الذره . الدارشيشعان : القندول . البادروج : الحبق . حبّ العروس : عيون السلاطين . استبقار : حبّ الخروع . دياقانيليون : دهن الزنبق . الروغ : مخيض اللبن . العصلج : شلش الحلاوي . الحلبوب : حبق الدجاج . قسطرون البوطونيسكا : بزر القنب . تراحشقوق : نوع من الهندبا . سليخا : شلش الرياس .

الرند : ورق الغار . الدبابرنس : الاجاص . البستان : المقيس . البسد : المرجان . بازرود . حبّة المباركة . الجرشف : العكوب ، أو الارضي شوكي . افراجيا : حاشا الزوفا . حلوز : حب الصنوبر . الحلوسيا : الكزبرة . الفرومانيا : الكراويا . قثا هندي : خيار شنبر . دياكدين : سقمونيا . اسبوس : زبد البحر . الرازيانج : الشومار . سنّ الفيل : العاج . ملح الطرطير : دردي الخلّ . الأُترج : الكبّاد .

كتاب «تاريخ الازمنة» للدويهي

وثبت النساخ في القرن الـ ١٦

بقلم الخوراسقف مخايل الرجي
حافظ المكتبة والخزانة البطريركية

طالما عطش عشاق الاداب اللبنانية الى ظهور مؤلفات العلامة البطريرك اسطفان الدويهي (١٦٧٠ — ١٧٠٤) ، ولا سيا كتابه « تاريخ الازمنة » .

فنشر اقساماً منه ، مضافةً الى سواها من كتبه ، المعلم رشيد الشرتوني ، فلم ترو غليل العلماء المدققين ، لما اعتور النص من حذفٍ وبضعٍ ، او تصليح وتحوير . وقد تكون ظروف زمانه هي التي لم توآته عملاً اكمل (تاريخ الطائفة المارونية . المطبعة الكاثوليكية — بيروت . سنة ١٨٩٠) .

وقد انبرى حضرة الاب توتل اليسوعي لابراز « تاريخ الازمنة » بطريقة علمية ، مستعيناً بنسخه المعروفة لديه ، وعددها ١٢ ، فادّى للعلم والتاريخ خدمةً يشكر عليها (تاريخ الازمنة ١٠٩٥م— ١٦٩٩ م، نشره على اصوله للمرة الاولى .. الاب فردينان توتل اليسوعي ، المشرق السنة الـ ٤٤ : ١٩٥٠) .

ولكن يعز علينا الا يكون الكتاب المنشور ، وقد تمَّ طبعه على احسن وجه، يضاهي نشره نصاً جماله طبعاً . ولسنا الان في معرض نقده بالتفصيل . وانما نقتصر على الاشارة الى ان فيه عدة اغلاط طبع او نقل كان المفروض اصلاحها، وارقاماً في الجداول لا تتفق مع الاصل ، وخصوصاً قرآات كثيرة مغلوطة وهي المأخوذة عن النسخ المخطوطة بالحرف السرياني اي بالكرشونية ، وخاصة عن المسودة . وقد اتخذ حضرته اساساً لطبعته نسخة بالكرشونية كما ذكر في التوطئة بدون ان يخفي صعوبة الامر ، حيث قال : « ولم نسر بالعمل الا سيراً بطيئاً لصعوبة قراءة الكتاب بالخط الكرشوني المشوه بنخر الدود » (التوطئة ص ج) .

فما كان احراه بالعدول، والحالة هذه، عن النسخة الكرشونية الى سواها عربية، وبكل حال عن هذه النسخة المنخورة المكتوبة سنة ١٧٩٧، ولديه من النسخ ما هي اقدم منها واقرب الى عهد المؤلف وخصوصاً الى شخصه، «خطها حسن سهل القراءة» كما قال في النسختين الواتيكانيتين رقم ٣٩٤ و ٦٨٣ (التوطئة ص ه). وعلى الاولى هذه الكتابة بالكرشونية: «هذا الكتاب باسم الخوري ميخايل الدويهي وهو من مصنفات المرحوم البطرك اسطفان» (اخر الكتاب: عن مذكراتنا). والخوري ميخائيل الدويهي هو ابن شقيق البطريرك. والاخرى خطت سنة ١٧١٠، بعد وفاة الدويهي بست سنوات (التوطئة ص ه).

وعندنا ان كتاب «تاريخ الازمنة» لا يصح نشره الا عن النسخة الواتيكانية رقم ٢١٥. فهي بخط المؤلف نفسه، وقد هذب واصلح وزاد ونقص فيها. وارسلها مع كتب اخرى الى رومية، على امل ان يطبعها مجمع نشر الايمان المقدس، وهي على حالها قبل ان يتمكن من تبييضها، وكان ذلك سنة ١٦٨٥ صحبة الخوري يعقوب عواد، او سنة ١٦٩٥ صحبة المطران بطرس مخلوف، والاول ارجح.

والبرهان ما وجد في محفوظات المجمع المذكور من ان مقرره عرض للسادة الكرادلة سنة ١٦٩٧ «ان بطرك انطاكية على الموارنة يرجو من هذا المجمع المقدس ان يطبع بعض كتب ارسلها اليه مع موفديه وهي العهد الجديد والشرطونية وكتاب الطقوس وتاريخ الموارنة» (خزانة المجمع، المراسلات، رقم ٦٨ ورقة ٩٩، عن نسخة مصورة من مخلفات المرحوم الخوراسقف يولس قرالي)

ولا بد من الاستعانة، في هذا العمل، بالنسخ الاخرى ذات الاهمية، وبالاخص بالمسوّدة وبالنسختين الواتيكانيتين السابق ذكرهما رقم ٣٩٤ و٦٨٣.

وعمل كهذا لا يصح ان يعهد به الى واحد فرد، بل يجب ان يتعاون على القيام به نخبة من ذوي المعرفة والاطلاع والتدقيق.

وبعد فها نحن ننشر ثبت الخطاطين في القرن الـ١٦، كما جاء في المسوّدة بعنوان «النساخ بهذا الجيل» (ص٢٦٢-٣). وقد نقله الاب توتل في كتابه

(١٩٢–٤) ووضعه تحت عنوان « النساك بهذا الجبل » ، عوضاً عن النساخ . وقد وقع هذا الغلط لان للحرفين العربيين ك و خ مقابلًا واحدًا في الكرشونية، هو ܟ فيقرأ ك او خ بحسب المعنى والقرائن . ومن مقابلة هذا الثَّبت في مقالنا الحاضر وفي طبعة الاب توتل يتضح لك الفرق،وبه حجة على كثير مما قدمناه .

...

[ص ٢٦٢] النساخ بهذا الجبل (الـ ١٦)[1]

1500 اهدن : مطران يحنا من بيت عبيد . الحبيس جبرايل . واخوه القس
1537 مالك وابن اخيه شماس جرجس بن اسطفان . وابنه القس يونان من بيت سليته . (الاصل قبل التنقيح : جبرايل : والقس مالك والقس جرجس بن اسطفان واولاده (ثم اصلحت : واولاد عمه القس جرجس والقس يونان) .
قس وهبه بن مارون . قس جرجس بن صيبعا من بيت معوض (الاصل المنقح : قس جرجس بن صيبعا صيبعا) .
خوري يوسف راهب بقزحيا . خوري انطانيوس الصهيوني

1552 اجبع : الخوري ايوب . وقس موسى بن قس سليمان .

1558.1547 ادنيت : شماس حبقوق . وشماس جرجس .

1506 ايليج : خوري يونان . خوري برصوما وابنه خوري حنا . وخوري جرجس وابنه خوري ايغناطيوس . كان يعرف كل بلاد البترون .

1507 ايطو : مخايل بن جرجس بن خوري موسى بقزحيا المكنى بابن الصفدي .
الايوار (البوار) : شدياق حنا .

1500 بان : خوري ابراهيم . وابنه قس يُحنا . وابنه قس سركيس . وخوري يوسف . وخوري باخوس . من بيت صياغا ([illegible]) . الملقبين باولاد خريطه . نساخ ومصورين .
بشري : خوري موسى بن شوشان . خوري يوسف بن المطران .

---

١) ما زيد على الهامش او بين السطور بخط المؤلف لا يبطل ان يكون من الاصل . ولهذا اوردناه مع المتن اصلًا واحدًا . ولم نشر الا الى الاصلاحات المجراة على الاصل . ثم ان كلمتي شماس وشدياق وردتا في الاصل مقتضبتين : شم وشد فكتبناهما كاملتين .

1520 بجه : خوري موسى الراهب في الاقسية . وقبل ان كان يعقوبي .
بقوفا : البطرك ميخايل . واخوه سركيس . وابن اخوه (الاصل المنقح:
واخوه يوسف .
بيطوميني : اسقف مرقس ، والقس بركه الراهب . 1495
1546 جاج : الاسقف يوسف .
بشعله : حبيس الخوري سركيس من بيت حبقوق
1521 غسطريا : الاسقف يوسف . وابنه خوري جرجس . وابنه قس يوسف .
1567,1527 حاقل : قس عيسى بن سالم في غنلين . الراهب يوسف بدير
مار حوشب . يعقوب .
1514 حدشيت : خوري حنا بن حج حسن . والخوري هارون . وابنه خوري
يوسف . وابنه شدياق سمعان بن قس هارون من بيت كعبوش .
حوقا : القس مرقس سنة 1535
1532,1514 حردين : جبرايل بن بطرس بن براهيم .
1561,1522 حدث : يوسف الخوري بن الخوري جرجس . قس داوود بن
خوري شمعون .
1515 حصرون : خوري مارون بن دربع . خوري ايوب (اصلها : حنا) بن
يوسف سيقان (هنا جملة ممحوة : طرابلس : شدياق الياس سيقان) .
وابنه حنا . وخوري يوحنا بن يوسف كشري .
1520 يشونه : موسى .
[ص ٢٦٣] كور : قس يحنا بن متى بن سليمان بقرحيا ..
1535 كورماجيتي : خوري موسى الراهب بن شدياق دانيال .
1557 كليني : جرجس بن سليمان .
1554 خيرفانه : شماس متاوس .
1564 دير مار يوحنا كوزبندي : الراهب يوسف .
كفور : قس موسى بن داوود .
1595 كفركدا : الخوري يعقوب راهب دير مار انطانيوس بارض افقال .

1507 لحفد : قس بطرس في طالا . قس موسى 1517 . راهب حنا بدير مار اسطفان . شماس جرجس . واخوه مسعود 1516 .

1533 مطوشي : خوري مارون بن انطون (ممحو : والأسقف مرقس) .

معد [معاد] : بطرس بن قس موسى .

1522 مترين : الخوري يونان .

قرية الناووس : القس موسى ملكي (1520 / 7208 mundi) .

1520 ساحاتو : حنا بن قس سمعان .

ساحل علما : خوري حنا بن غندور .

سمر جبيل : قس سركيس بن يحنا بن خوري تادروس ، وكان راهب بقزحيا . وخوري بطرس .

1552, 1560 عاقورا : خوري سليمان . وابن عمه خوري حنا دحداح ابن خوري براهيم ابن قس مخايل .

1544 عجلتون : شدياق سركيس من بيت الخازن .

1510 فلودي : قس جبرايل .

1539 قنات : خوري شمعون بن خوري سابا

1526 قربصيا : خوري جرجس بن الاسقف يوسف .

1530 قوزحيا : خوري يعقوب الديريني . حنين القبرصي . مرقس القبرسي .

1554 رام : سعاده الملقب بيحنا بن خوري يوسف .

1550, 1563 شبطين : خوري بطرس بن شدياق براهيم (الاصل المنقّح « بطرس » فقط) وخوري اثناسيوس .

1520 تولا الجبّة : خوري سركيس . وابنه قس جرجس .

1523 تحوم : خوري جرجس الراهب بن شدياق حنا بن شبارا .

تنورين : شماس بطرس .

توتج : خوري حنا بن الرطيبة . وابنه قس براهيم . وابنه قس الياس في قبرس .

نشيد الميلاد

للشاعر رومانس المرنم

عرّبه وعلّق عليه الاب نقولاوس قادري ق. ب.

توطئة

من جوهر الشعر ان يكون سرًّا من اسرار الفنون . ولكل شاعر سرّه الخاص. واذا اردنا ان نستقصي نفسية شاعر علينا ان نلج الى قدس اقداسه الى نفسه العميقة ونسبر غورها ونبدد ما تكاثف فيها من الظلمات . وكلما توغّلنا في مجاهل هذه النفس وفي معرفتها العميقة شعَّ لنا منها ضيا. متزايد قادنا الى التحسّس باسرار الشاعر والى الدخول الى اعماقه وكنوزه. وآنذاك نفهمه ونصبح واياه واحدًا ويضيع الشاعر فينا فنتذوّقه ونحسّ باحساساته ونعيش معه ومع بيئته ومحيطه . وما قراءة الشعر الحقيقي ، الا بعثٌ جديدٌ لحياة الشاعر واطوار حياته ، وخلقٌ لزمانه وبيئته الاجتماعية والادبية والدينية.

ونحن إذ نقدم اليوم نشيد الميلاد للشاعر رومانوس المرنم نجتهد في التعرّف الى نفسيته وإحساساته ونقف على بسطة خيـاله ومدى تفكيره وبُعد رموزه وسموّ شعره وجمال مقطوعاته وغنى الفاظه الموسيقية الساحرة . فان له رموزًا لفظية وطباقات شعرية وجناسات بديعية توقظ في الاديب شعورًا رفيعاً وتفكيرًا عميقاً وجمالًا عاليـاً من الشعر الصافي ، فيشعر بتلك العبقرية الادبية التي تميز ببُرد الوحي وصفا. الالهام وسناء الالوهة المنتشرة على هذا الكون في انغام الشعراء.

في احدى الليالي هبط النعاس على رومانس بنوع عجيب فطار وهو في الحلم الى السماوات فرأى نفسه بين اجواق الملائكة والسارافيم ودنا منه ملاك وقال له : ما بالك صامت ألا انهض وانشد معنا ترانيم السماء . آنذاك تعلّم رومانس الانشاد ولما أفاق من رقاده العجيب أحسَّ بالوحي يهبط عليـه ويحرّك شفتيه ويلمس قلبه بنفحاتٍ ملؤها الشعر وصفوتها الموسيقى وروعتها نقاء الالهام وكان ذلك في ليلة عيد الميلاد . اسمعه اسمعه في سكون الليل ورهبة الصلاة ! اسمعه

يرسل في الكون الحان السماء ، انشودة الملائكة والشاروبيم .

انظره يرفرف باجنحة الخيال فوق ربوع بيت لحم فإذا بمشاهد الميلاد تمر امام باصرتيه بتفاصيلها ودقائقها، واذا بالكون كله يساهم في تكوين الملحمة الاولى الرائعة ملحمة النصرانية، وتلك الانشودة الساحرة انشودة الميلاد. ومتى سمعت مقدمة النشيد «اليوم البتول تلد الفائق الجوهر» فلا يأخذك العجب بل انتظر النهاية ودع عظمة تلك السلسلة المؤلفة من اربع وعشرين مقطوعة، دعها تتوالى على مسمعيك بسلاستها وجمالها المتناهي بالروعة. ومتى سيطرت عليك هذه المقطوعات ضمّ صوتك الى صوت الشاعر وردّد معه هذه الهتافات: «وُلد المسيح ! وُلد طفلًا جديدًا الالهُ قبل الدهور !»

هذا هو النشيد الذي لبثت مدينة القسطنطينية تتغنّى به حتى ما بعد القرن الثاني عشر في ابهى حفلات البلاط الملكي. هذا هو نشيد الميلاد الذي جمع البساطة الى السموّ والروعة الى الجمال ، والعمل المسرحي الى سرد الحوادث بفنّ وشاعرية .

يُقسم النشيد الى خمسة اقسام :

١ً – استدعاء المؤمنين الى بيت لحم (مقطوعة ١) ؛ ٢ً – صلاة العذراء الى طفلها الالهي (مقطوعة ٢ و ٣) ؛ ٣ – حضور المجوس وحوارهم مع العذراء (مقطوعة ٤ – ١٢) ؛ ٤ً – حديث المجوس عن سفرهم ومثولهم امام هيرودس ومباحثهم معه ؛ ثم السجود وتقدمة الهدايا (مقطوعة ١٣ – ٢١) ؛ ٥ً – صلاة العذراء وختام النشيد (مقطوعة ٢٢ – ٢٤).

ويمكننا ان نجد نوعاً من الاتساق والوحدة في تأليف هذا النشيد . انه يتألف من قسمين اساسيين يحتويان على عدد محدود من المقطوعات . القسم الأول (مقطوعة ٤–١٢) يكثر فيه العمل المسرحي والحوار اللطيف الرشيق. والقسم الثاني (مقطوعة ١٣–٢١) يكثر فيه سرد الحوادث ويتألف من جزئين هما البداية والنهاية . فالاولى تتألف من مقطوعتين (١ و ٢) والنهاية من ثلاثة مقطوعات (٢١–٢٤) وهذان الجزءان يؤلفان سجود العذراء وصلاتها الوادعة.

والمقدمة في مطلع النشيد هي عرض للاشخاص وللمكان ، ويدخل فيه الطفل الالهي والام العذراء والملائكة والرعاة والمجوس والكوكب والمغارة والارض . وذلك في العشرة الابيات الصغيرة الاولى . وهـذا العرض الموجز يقرب الشاعر رومانوس من الشاعر الافرنسي المسرحي الشهير «راسين» الذي

يعرض توًا في اول مسرحياته الموضوع والاشخاص والزمان والمكان .

وبعد هذا المطلع يحيّي الشاعر بيت لحم برموز الكتاب المقدس واقوال الانبياء ثم يبدأ الحوار اللطيف بين الام ساجدة امام طفلها الالهي تخاطبه خطاب الملوك وهو متوسّد مزود البهائم « وفي مغارة غريبة » . وبعدئذ يصل المجوس ويتقدمون من المبيت « يستأذنون بالدخول » فتسأل الام ابنها مثول ملوك المشارق امام « فقره الغني ومسكنته المكرمة » وإذ يدخلون يعربون عن دهشتهم من الولادة العفيفة وتؤكد لهم العذراء ان وجود يوسف خطيبها انما هو لصيانة بكارتها من الثالبين وللشهادة على ولادتها الالهية . وبعد ذلك يخبرها المجوس ما حدث لهم مع هيرودس والفريسيين ويصفون لها « بابل » الوثنية والمذهلات الصائرة بالكوكب العجيب . ثم يقدمون للطفل الاله هداياهم ساجدين . وينتهي النشيد بصلاة العذراء التي تمثل الكنيسة فتسأل النعمة والخلاص للعالم بأسره .

هذا هو النشيد في مادّته وموضوعه وهذا هو الانسجام الخارجي الموضوع لهذه الاربع والعشرين مقطوعة .

وهو ايضاً ملحمة قصيرة يستعرض فيها الشاعر مشهدًا من مشاهد الانجيل يتوسع فيه كيفما يقوده خياله وعقله وشعوره . وربما كان هذا اول اناشيد رومانس التي خلقت له الصيت الخفاق من شواطئ بيروت حتى شواطئ البوسفور .

ونشيد الميلاد هو بالحقيقة من اجمل الاناشيد واخصبها فكرة واروعها معنًى واغزرها انطلاقاً واطلقها خيالًا وأوسعها مدى واعمقها درساً لنفسيات عدة واجزلها شعرًا وموسيقى .

فهناك نفسية الأم العذراء تظهر اللطف بالذات والحنان والوداعة : « انت لي مجد ، انت لي فخر فلست اخجل . انت انت النعمةُ وزينةُ هذا المسكن وجمالي »[1] . وهي الاناقة العالية : « أُشاهدكَ بالقمط وزهرةُ بكارتي لم تفضَّ ، انتَ حفظتَها حين ارتضيتَ ان تولد طفلًا جديدًا وانت الإله قبل الدهور »[2] . ويلي هذه العاطفة شعور عميق يتزج باعجاب وذهول : « اراكَ ، يا حشاشتي فاذهل ، لاني ارضعك ولم اقترن بزوج . »[3]

وتبقى هذه الام الفتية نشيطة جريئة : « للحال صرختِ العذراء بالمجوس :

١) مقطوعة ٧ ٢) مقطوعة ٢ ٣) مقطوعة ٣

من انتم »[1]. ثم تلبث في حديثها مع ابنها ذاهلة ولكنها متسامية : « قل لي، بني كيف زرعت، كيف نشأت فيّ؟ »[2] وتريد ان تدوم في رتبتها ولو اصبحت اماً للاله فهي « تسكن المغارة التي سكنها بارادته ابنُها الطفل الجديد »[3]. ثم تذهل من محبة الله للناس فتسأله : « ايها الملك الرفيع مالك وللفقراء ؟ يا صانع السماء لِمَ اتيت الى ابناء الارض ؟ »[4].

وهي مع محبة طفلها تحب البشرية وتشعر برسالتها العميقة والبعيدة المدى فتشعر بأنها ام البشرية : « يا ابني لست لك وحدك أماً ... فانا اسألك من اجل الجميع ؛ انت اقتني لأكون فماً ومجداً لجنسي كله . »[5]

وهناك نفسية المجوس المخلصين لصوت الايمان يتكلمون باحترام ووقار امام الأم واذا ما استفسروا فمن باب الدالة والشعور بالمسؤولية : « وأنتِ من تكونين وقد انجبتِ طفلاً كهذا ؟ مَن ابوكِ ؟ ومن املكِ حتى صرت اماً وحاضنة ابن بغير أبٍ »[6]. ثم انهم يستفهمون كفافاً عن وجود رجل داخل خدر العذراء : « فمن اين لك، يا عذراء، هذا الزوج الذي نراه في خدرك ؟ أليس ايلادك لا دنس فيه ؟ »[7]. ولكن عندما يسمعون الى الاسباب التي تعطيها مريم لوجود يوسف معها يطمئن قلب المجوس الأمناء ويخبرونها بوضوح عن سفرهم ثم يسجدون للطفل ويقدمون له الهدايا : « قدم المجوس بأيديهم الهدايا وسجدوا لهدية الهدايا وطيب الطيوب »[8]. نفسية المجوس تظهر غنية بمحبة الحقيقة ويبحثون عنها باخلاص : « أتريدين ان تعلمي من نحن ومن اين أتينا ؟ من ارض الكلدانيين . من بابل . تركنا ناراً تلتهم كل شيء، فشاهدنا ناراً ندية »[9]. ولاجل الوصول الى هذه الحقيقة طافوا المدن ومرّوا باخطار عديدة : « لقد جزنا في متاهات الارض وسبرنا اغوارها ونحن نبحث عن ضياء الكوكب اين يولد طفلاً جديداً الاله قبل الدهور »[10].

وتكثر في هذا النشيد الصور الشعرية الرمزية التي تجعل من رومانس شاعراً عبقرياً يضاهي اكبر الشعراء على مر العصور .

---

١) مقطوعة ٥
٢) مقطوعة ٣
٣) مقطوعة ٤
٤) مقطوعة ٢
٥) مقطوعة ٢٣
٦) مقطوعة ٥
٧) مقطوعة ١٠
٨) مقطوعة ٢١
٩) مقطوعة ١٣
١٠) مقطوعة ١٦

اسمه يتكلم بتصاوير دانتي : « ابو الأم يغدو ابنها عن رضى »[1]. وبهذا المعنى انشد الشاعر الطلياني في الكوميديا الالهية : ايتها الأم العذراء ، يا ابنة ابنك Vergine Madre, Figlia del tuo Figlio[2]

ومن جمالات هذا النشيد الاستعارات الجريئة : « اسمح ، بني ، ان يلجوا حماك فيشاهدوا فقرك الغني ومسكنتك المكرمة ! »[3] ومنها قول العذراء لابنها وهي تجعل من الاشياء اشخاصاً : « أعشقت المغارة ؟ ام استهواك المذود ؟ »[4] وهناك الروعة في الاناقة واللطف مشهد العذراء الأم : « وانحنت ساجدة للمتكوّن من احشائها »[5]. وقولها اللطيف في آخر النشيد : « واذهب الى مصر هاربة معك لاجلك يا قائدي ، يا ولدي ، يا خالقي ، يا منقذي ، ايها الطفل الجديد الاله قبل الدهور ! »[6] هذه النبرات اللطيفة تنفجر من ينبوع المحبة الوالدية التي تحب ابنها حتى الهيام وحتى العبادة فتصرخ بفعل ايمان قوي هو صدى محبتها لابنها : « ايها الطفل الجديد الاله قبل الدهور » ومنها مشهد الملوك يسجدون لهدية الهدايا وطيب الطيوب .»[7]

ومن جمالات هذا النشيد حسن التلاعب باللفظة الواحدة يحتلها رومانس الشاعر معاني كثيرة توحي رموزاً عدة ولوحات ومشاهد من الكتاب المقدس فيمر رومانس بلباقة من معنى الى معنى ومن صورة الى صورة حتى يصل الى تصوير الرمز العميق الذي يريده للفظة الواحدة. هكذا يتلاعب مثلاً في لفظة « نجم » في المقطوعة الخامسة فيستعملها ست مرات الى ان يصل الى تصوير النجم الحقيقي يسوع المسيح وهكذا يتلاعب بلفظة باب كما في المقطوعة التاسعة اذ يمر رومانس بلباقة ورشاقة من تصوير الباب الذي جاءت صورته في حزقيال (٤٤—٢) الى الباب المادي الذي فتحته العذراء للمجوس الى الباب المعنوي الدال على احشاء العذراء الذي دخله المسيح وحده وبقي مغلقاً الى ان ينتهي بالباب يسوع المسيح الباب السماوي الذي يفتح لابناء البشرية ويدخلها الى السماء « انا هو الباب ومن يدخل فيَّ يجد المرعى » (يوحنا ١١—١٤)

---

١) مقطوعة ٢ ٤) مقطوعة ٣ ٦) مقطوعة ٢٦

٢) La Divina Commedia Paradis. chant 33 (vers1) ٧) مقطوعة ٢١

٣) مقطوعة ٧ ٥) مقطوعة ٦

ومن جمالاته ايضاً تلك الرموز الى آيات الكتاب المقدس ومشاهده العديدة ففي كل مقطوعة يعطي الشاعر اشارة الى مشهد منه او الى آية من آياته البينات وفي ذلك يفتح للقارئ نوافذ عديدة تطل على مشاهد واسعة . فمن بئر لحم تحتفر اشتهى داود ان يشرب منها ، اشارة الى عطش داود حينما كان يحارب جيش الفلسطينين الى ثمار الفردوس حيث كان يتخطى آدم قبل الخطيئة ونجم يعقوب ونبوءات بلعام الى عليقة موسى الملتهبة وغير المحترقة وعصى موسى تشق الصخرة الصلدة وعمود النار يقود بني اسرائيل في البرية وهرب بني اسرائيل من مصر واغتذائهم بالمن الى تعب حبقوق الذي اخذ الطعام لدانيال وهو في جب الاسود كلها اشارات ورموز توحي كثيراً من المعاني بالفاظ يسيرة .

ولا يترك القارئ هذا النشيد الا واستأثر به الشاعر وملك على قلبه وعقله وخياله فيشعر بالحاجة الى ترك نار المادة تلتهم فيه ما هو سام ورفيع ويشعر بأنه لا يقرب من جوهر الشعر الا متى احترق بنار الالوهية اي بتلك « النار الندية » تتدفق عليه الصفاء والوحي الرطيب واذا بالالفاظ تعبّر عما شاهده رومانس عن نار نديّة عن اله يتدفق بولده اللطف والايناس والطهر والمحبة فيرى في الكون بعينيه ما رآه الشاعر الافرنسي بول فاليري في قصيدة المدافن البحرية « نارًا بدون مادة »[1] Un feu sans matière .

والشيء الخاص بشاعرية رومانس هو تلك النظرة الخاطفة للاشياء والصور ينظر الى الصور بعين تلتهم الالوان فيصور بالالفاظ ما تشعر به النفس في الاعماق او ما يصوره الفنانون بالالوان وله نظرة عميقة الى نفسية الاشخاص الذين يتبارون على مسرح اناشيده وله موهبة عجيبة فريدة للتعبير عما يحس ويشعر ويفكر . وخصوصاً له فن رائع في جمع الاصوات بنوع شيّق فتخال وانت تقرأ اناشيده انها مجموعة من الاصوات والاجواق المتساوقة تتردد في مسمع البرايا نبرات ساحرة وابتهالات واثبة . فرومانس حقاً هو من ناثري الافكار على انطلاق واسع خصيب يضم في اناشيده روعة الادب اليوناني ورشاقة ولباقة الشعراء الكبار على ممر العصور .

(1 Paul Valéry: Le cimetière marin, strophe X

نشيد الميلاد (١)

للقديس الشاعر رومانس المرنم

مقدمة

اليوم البتول
تلد الفائق الجوهر
والأرض تقرّب المغارة
لغير المقترب اليه ؛
الملائكة مع الرعاة
يمجدون ،
والمجوس مع الكوكب
يسيرون ،
لانه من اجلنا وُلد
طفلا جديدا ،
الاله قبل الدهور .

(١ Guiseppe Cammelli. *Romano Il Melode Inni.* P. 88-119. Edizioni Testi Christiani 1930.

١) هلم ننظر بيت لحم
فقد فتحت عدنا !
هيا فنجد النعيم
في الخفاء ،
هلمَّ نجنِ ثمارَ الفردوس
داخل المغارة !
هناك ظهر
اصل بغير سقي
يتفرع منه الغفران ،
هناك وجدت بئر
لم تحتفر ،
اشتهى داود قديما
ان يرتوي منها[٣] .
هناك عذراء
حينما ولدت طفلا
اروت للحال
ظمأ ادم وداود
لنسرع الى حيث وُلد
طفلا جديدا ،
الالهُ قبل الدهور .

٢) ابو الأم
يغدو ابنها عن رضى[٢] ؟
مخلص الأطفال
يتوسد المذودَ طفلا ؛
تأملته امه ،
فهتفت :
« قل ، لي ، بني ،
كيف زرعت ،
و كيف نشأت فيَّ ؟
اراك ، يا حشاشتي ،
فأذهل
لأني ارضعك
ولم اقترن بزوج ؛
اشاهدك بالقمط
وزهرة بكارتي
لم تفضَّ ،
انت حفظتها
حين ارتضيت ان تولد
طفلا جديدا ،
وانت الاله قبل الدهور

٢) سفر الملوك الثاني ٢٣—١٥ (فتأوه داود وقال من يسقيني ماء من بئر بيت لحم ؟)
٣) راجع الكوميديا الالهية لدانتي الشاعر الطلياني في النشيد الثالث والثلاثين من الفردوس
Vergine madre, *figlia del tuo Figlio*, (vers 1)

[3] ايها الملك الرفيع، [4]
ما لك وللفقراء ؟
يا صانع السماء ،
لِمَ اتيت الى ابناء الأرض؟
أعشقت المغارة ؟
أم استهواك المذود ؟
انظر ليس في القرية
من مكان لأمتك .
وما لي اقول مكان،
حتى ولا مغارة
لان هذه ايضا ،
هيَ لآخر غريب .
سارة لما ولدت ابنا
أعطي لها
ميراث من الارض فسيح،
واما انا فلا مأوى لي .
لكنني اسكن المغارة
التي سكنتها بارادة
طفلًا جديدا ،
وانت الاله قبل الدهور

بينا كانت تستسيغ
هذا في سرها
وتصلي الى عارف الخطايا
سمعت المجوس
يبحثون عن طفلها
للحال صرخت العذراء بهم:
« من انتم ؟ »
وهم اجابوا :
« وانت من تكونين
وقد انجبت
طفلًا كهذا ؟
من ابوك ؟
ومن امك
حتى صرت اما
وحاضنة ابن
بغير أب ؟
فقد رأينا نجمه [5]
حكمنا بانه
يُظهر طفلًا جديدا
الاله قبل الدهور . »

---

٤) راجع انجيل متى ٨-٢٠
٥) متى ٢ - ٢

٥) اجل ! أعدَّنا بلعامُ باعتناء
لندركَ النبوّات
التي تنبأ عنها
قائلا :
« سوف يُشرقُ نجم ،[٦]
نجم يُخمدُ
جميع العِرافات
والعيافات ،
نجم يحلُّ
امثال الحكماء
واقوالهم وألغازهم .
نجم النجم
الذي هو أوفر ضياء
من الشمس التي تنير نا
بما انه خالق
جميع النجوم ،
وعنه قد كتب
« من يعقوب يُشرق
طفلا جديدا
الاله قبل الدهور . »

٦) عندما سمعت مريم
هذه الاقوال العجيبة
انحنت ساجدة
للمتكوّن من احشائها ،
وهتفت ببكاء :
بني ، ما اعظم
اجل ، ما اعظم
كل ما صنعت
مع حقارتي ،
ها ان المجوس
ملوك المشارق
خارجاً يبحثون عنك ،
واغنياء شعبك[٨]
يستعطفون وجهك
طالبين ان ينظروك .
ان هؤلاء هم
شعبك حقا ،
وقد عرفوك
طفلا جديدا
وانت الاله قبل الدهور . »

٦) سفر العدد ٢٣–٢٣
٧) سفر العدد ٢٤–١٧
٨) مزمور ٤٤–١٣

٧) وبما انهم شعبك الخاص ٨)
فاسمح بني
ان يلجوا حماك،
ويشاهدوا فقرًا غنيًا،
ومسكنة مكرمة.
انت لي مجد، [9]
انت لي فخر،
فلست اخجل.
انت انت النعمة[10]
وزينة هذا المسكن؛
وجمالي،
فأذن الان
ان يدخلوا هذا الحمى.
لا يهمني فقري،
اذ انت كنزي.
ها قد اتى الملوك
لينظروك،
وعرفوا مع المجوس
انك ستظهر
طفلا جديدا
وانت الاله قبل الدهور»

ان يسوع المسيح
والهنا الحقيقي
أسرّ في الخفاء
الى قلب امه،
وقال لها: «ادخلي المجوس
الذين جذبتهم بكلمة:
لان كلمتي اشرقت لهم
وهم يبحثون عني،
وهذه الكلمة
هي نور للعيون
وقوة للنفوس؛
هي الكوكب الذي
رافق المجوس
كخادم لي،
ووقف بعد ان
اكمل خدمته،
ودل باشعته
على المكان الذي
ولدت فيه
طفلا جديدا،
انا الاله قبل الدهور.

٩) يشوع بن سيراخ ١ : ١١ ١٠) يوحنا ١ : ١٤

(٩ إقبلي الان، يا عفيفة،
إقبلي الذين قبلوني،
لاني فيهم
كما انا على ذراعيك؛
اتيت مع هؤلاء
وما فارقتك».
اما هي ففتحت الباب،
وتقبلت
نخبة المجوس.
فتحت الباب
من هي باب مغلق للجميع[11]
الذي اجتازه المسيح وحده
فتحت الباب
من هي ابدا مغلقة
غير مسلوبٍ
كنزُ بكارتها؛
فتحت الباب
من وُلد منها
بابُ السماء للعالم،
طفلا جديدا،
الاله قبل الدهور.

١٠) حينئذٍ دخل المجوس
الى الخدر،
ولما ابصروا المسيح
خافوا، لانهم شاهدوا
امَّ الصبي
وزوج امه
فهتفوا بخوف :
« هذا الابن
لم يولد من رجل؟[12]
فمن اين لك، يا عذراء،
هذا الزوج
الذي نراه الآن
داخل خدركِ ؟
أليس إيلادُكِ
لا دنس فيه ؟[13]
فلتكن بلا ملامة
مساكنتُك ليوسف
فالحساد كثيرون
يبحثون عن مولد
طفل جديد،
هو الاله قبل الدهور.»

١١) حزقيال ٤٤–٢ ١٢) عبرانيين ٧–٣ ١٣) سفر الاحبار ٢١–٢٣

١١) « قالت مريم للمجوس
سأبين لكم
لأي الاسباب احتفظ
بيوسف في مسكني :
لأضع حداً لأقوال الثالبين.
انه الشاهد الذي سيخبركم
بجميع ما سمعه
عن ابني .
لانه فيما كان نائما
ابصر بالحلم ملاكا قديسا[14]
اعلمه كيف حبلت انا .
فرؤيةهذا الروح الناري[15]
تحققت ليلا
ومرّ يوسف من الارتياب
الى تمام اليقين ،
وتخلص من الأوهام
التي كانت تقلقه
فهو يعيش معي
مبرهنا على ان هذا
الطفل الجديد
هو الاله قبل الدهور

١٢) سيحدثكم يوسف بوضوح
بجميع ما سمعه ،
ويبشركم بدقة
بجميع ما شاهده
من المدهشات السماوية
والارضية .
ويحدثكم كيف تسبح
الارواحُ النارية[16]
مع ابناء الارض
تسابيح الرعاة .
بينما ان الكوكب النيّر
ظهر لكم ايها المجوس
وقادكم في سفركم .
الا دعوا المقولات
واخبرونا الان
عن الصائرات معكم
فمن اين أتيتم ؟
وكيف عرفتم
ان قد ظهر
طفلاً جديدا
الاله قبل الدهور ؟ »

١٤) متى ١ – ٢٠
١٥) خروج ٣ – ٢
١٦) لوقا ٢ – ٨ و ٩

١٣) بعد ان قالت لهم المنارةُ ١٤) ألا كل شيء باطل

هذه الاقوال كلها ؛
هتف بها مصابيحُ المشرق :
« أتريدين ان تعلمي
من نحن ومن اين اتينا ؟
من ارض الكلدانيين
حيث لا احد يقول :
« إله الالهة الرب ! » [١٧]
من بابل
حيث يجهل الناس
مَن خالق النور ليعبدوه .
لقد اتى الى هناك
شعاع ضئيل من طفلك هذا
وقادنا من نار بابل ؛ [١٨]
تركنا نارًا تلتهم كل شيء ؛
فشاهدنا نارًا ندية [١٩]
تعطي النور الحقيقي
طفلا جديدًا
الاله قبل الدهور .

وباطل الاباطيل ! [٢٠]
ولكن ان يفكر احد
في هذا فلن يضل ابدا .
الناس بعضهم ضالون
والبعض مضلون .
فيا ايتها العذراء ،
النعمة لوليدك الذي به تحررنا ،
لا من الضلال فحسب ،
بل من اخطار الاماكن
التي قطعناها ،
واخطار الشعوب
التي لا تعرف الاله ،
واخطار اللغات المجهولة .
لقد جزنا في متايه الأرض ،
وسبرنا اغوارها
ونحن نبحث على ضياء الكوكب
اين يولد طفلا جديدا
الاله قبل الدهور !

١٧) سفر تثنية الاشتراع ١٠–١٧
١٨) دانيال ٣–٢٥
١٩) Paul Valéry : *Le Cimetière marin, strophe X* : « Fermé, sacré, plein d'un feu sans matière »
٢٠) سفر الجامعة ١–٢

١٥) وبينما كان يُضيء لنا
هذا المصباح ،
طفنا اورشليم كلها ،
مكملين اقوال الانبياء
وباحثين عن حقيقتها ؛
وكنا سمعنا بان الله قاصدٌ
ان يفتقد اورشليم [21]
وبفضل هذا المصباح
جزنا المدينة كلها
علّنا نجد فيها
الحجة الكبرى
فلم نجدها ،
لان الفلك كان
قد رفع عنها
صحبة الاشياء الثمينة
التي كانت قديما .
لقد زالت القديمات . [22]
وجدّد كل شيء
طفل جديد ،
الاله قبل الدهور . »

١٦) اجل ! قالت مريم
للمجوس الامناء :
« هل طفتم اورشليم كلها ،
اورشليم تلك المدينة
قاتلة الانبياء ؟ [23]
كيف استطعتم العبورَ فيها
دونما اذى
على الرغم من انها
بغيضة لدى الجميع ؟
كيف تملصتم من هيرودس
ذلك المتلهّب الى الدماء
خلافاً لما تسنه الشرائع ؟ » [24]
اما المجوس فقالوا لها :
« ايتها العذراء ،
لم نتملص منه .
ولكن سخرنا به ، [25]
وكنا مع الجميع
نبحث اين يولد
طفلا جديدا ،
الاله قبل الدهور ! »

---

٢١) صفنيا النبي ١–١٢
٢٢) كورنتس ٥–٧
٢٣) لوقا ١٣–٣٤
٢٤) اعمال ٩–١
٢٥) متى ٢–١٧

١٧) ان والدة الاله
لما سمعت اقوال المجوس
قالت لهم: « ماذا سألكم
الملك هيرودس والفريسيون؟»
« ان هيرودس اولا ،
وعظماء امتك ، كما قلتِ ،
تحققوا منا بدقة
عن زمان النجم
الظاهر الآن ،[26]
ولما عرفوا ذلك
حسبوا نفوسهم جهلاء
ولم يرغبوا ان يشاهدوا
من كانوا يبحثون عن معرفته ،
فلو عرفوه
لبحثوا عنه ،
فقد كان مجديا
للباحثين
ان يشاهدوا
طفلا جديدا ،
الاله قبل الدهور ! »

١٨) ان الحمقى حسبونا مثلهم حمقى
فسألونا مستفسرين :
« من اين اتيتم ؟
ومتى اتيتم من بلادكم ؟
كيف لم تسلكوا
سُبلا ظاهرة ؟ »
فسألناهم بدورنا
عما يعلمون :
« وانتم كيف سلكتم قديماً
ذلك القفر الواسع ؟
ان الذي قادكم
عندما كنتم تهربون
من شواطئ النيل ،
هو هو قادنا في سفرنا
ودعانا اليه الآن
من بلاد الكلدانيين .
أما قديماً فبعمود من نار ،[27]
واما الآن فبكوكب يُظهر
طفلا جديدا ،
الاله قبل الدهور .

---

٢٦) متى ٢ – ٧
٢٧) سفر الخروج ١٣ – ٢١

١٩)«كان الكوكب
يقود خطانا
في كل مكان ،
كما صنع موسى قديماً
حينما أطلع لكم عصاه ، [28]
فأناركم بالحقيقة الالهية .
انتم في القديم
غذاكم المن
وروتكم الصخرة الصلدة . [29]
واما نحن فامتلأنا
من الرجاء بهذا الطفل ،
وارتوينا من نعيمه .
فما خطر بفكرنا ونحن بفارس
ان نعود الى الوراء
او نسلك سبيلا غير مسلوك .
بل كنا نشتاق
ان نشاهد الصبي
ونسجد له
ونمجده
طفلا جديدا
وهو الاله قبلَ الدهور .»

٢٠)هذا ما صرّح به
المجوس المخلصون ،
فاطمأنت اليهم
العذراء المجيدة ،
واثبت الطفل
كلام الفريقين :
كلامَ البتول
اذ جعل احشاءها طاهرة
بعد الولادة ،
وكلامَ المجوس
اذ لم يُظهر الوهنَ
لا في رغبتهم ولا في خطواتهم؟
لان كلا منهم
تحمل التعب
مثل حبقوق النبي
عندما ذهب الى دانيال
فانه لم يشعر بالعي . [30]
فالذي ظهر قبلا للانبياء ،
هو هو اظهر ذاته للمجوس :
طفلا جديدا ،
هو الاله قبل الدهور ».

٢٨) سفر الخروج ١٦–٣١ ٢٩) سفر الخروج ١٧–٥ ٣٠) سفر دانيال ١٤–٣٦

٢١) وبعد كل هذا الحديث،
قدم المجوس
بأيديهم الهدايا وسجدوا
لهدية الهدايا
وطيب الطيوب.
قدموا للمسيح
ذهبا ولبانا
ومرًّا،
وهتفوا: «إقبلْ
هديتنا المثلثة الاجناس
كما تقبل تسبيح السارافيم
الثلاثي التقديس.
ولا تعرض عنها
كما اعرضت قبلاً
عن تقادم قايين،[٣]
بل احتضنها
كذبيحة هابيل،
بشفاعة امك
التي وُلدتَ منها
طفلا جديدا،
وانت الاله قبل الدهور.»

٢٢) ان العذراء الطهور
لما نظرت المجوس سُجَّدا
يحملون بايديهم
هدايا طريفة وفاخرة،
وكوكبا يبدو
ورعاة تشدو
لخالق البرايا وسيدها
توسلت اليه قائلة:
«بني، اقبل
تثليث الهدايا
واعطِ التي ولدتك
طلباتها الثلاث:
اني اسألك
لاجل اعتدال الهواء
وثمار الارض.
ولاجل الساكنين فيها.
سالمِ الجميع
من اجلي،
لانك ولدت
طفلا جديدا،
وانت الاله قبل الدهور.

(٣) سفر التكوين ٤ — ٦

٢٣) ايها الابن الحنون ،
بما اني لست لك وحدك اماً ،
فلا غرو ان ارضعتك
انت ، يا رازق اللبن ،
ولكني اسألك
من اجل الجميع .
أنت اقتنني
لاكون فماً ومجداً[٣٢]
لجنسي كله .
وسيحرزني عالمك
سترا عزيزا
وسورا وثباتا ،
والي سينظر
المنفيون
من نعيم الفردوس
لاني سأعيدهم
الى نعيم المعرفة
انا التي ولدتك
طفلا جديدا
وانت الاله قبل الدهور

٢٤) خلص العالم ، يا مخلص
لانك لهذا اتيت .
واجعل الكائنات لك
فلهذا أشرقت
لي وللمجوس
ولكل الخليقة .
هوذا المجوس
الذين أطلعت لهم
شعاع وجهك
يسجدون
مقدمين لك هدايا
فاخرة ومفيدة
وغالية الثمن .
انا استعين بها
واذهب الى مصر
هاربة معك لاجلك
يا قائدي ، يا ولدي ،
يا خالقي يا منقذي ،
ايها الطفل الجديد
الاله قبل الدهور !

---

٣٢) سفر الخروج ٤ – ١٦

فردريك اوزنام

١٨١٣ - ١٨٥٣

بقلم الاب اغناطيوس سركيس
من الرهبانية الشويرية

احتفلت « شركة القديس منصور دي بول » هذه السنة في فرنسا واوربا وسائر انحاء العالم المسيحي ، بذكرى مرور المئة سنة الاولى على وفاة مؤسسها فردريك اوزنام (١٨١٣ — ١٨٥٣) .

وهذه الذكرى حاضرة ولا شك في اذهان قراء المشرق . كما ان حياة هذا الرجل العظيم ليست ، على ما نظن ، مجهولة لديهم . لذلك لم يكن من حاجة الى الدخول في تفاصيل تلك الحياة الحافلة بجلائل الآثار والعبر. فنكتفي هنا بتلخيص خطوطها الاساسية الكبرى التي لا بد منها لفهم سياق الكلمة التالية . وقد جربنا فيها ان نستقصي عن الروح الذي سيطر على حياة اوزنام،ووجه جميع اعماله ، وكان ميزة صفاته وواسطة العقد في فضائله والدعامة الكبرى للاخلاق السامية التي رفعته الى درجة عالية من الكمال الانساني والمسيحي . عنينا بها فضيلة الايمان .

— ١ —

ولد فردريك اوزنام في ٢٣ نيسان ١٨١٣ في مدينة ميلانو وهي اذ ذاك مقاطعة افرنسية وابوه ضابط في الجيش المرابط فيها .

وفي سنة ١٨١٦ عادت عائلته الى مسقط رأسها في مدينة ليون . وبلاد فرنسا ما تزال تفور بالثورات والانقلابات .

ومن ١٨٢٣ الى ١٨٢٩ تلقى دروسه الثانوية في الكلية الملكية في ليون.

وفي ١٨٣٠ قرر والده ان يعلمه الحقوق وادخله مكتب احد المحامين للتمرّس . وفي هذه السنة سقط حكم شارل العاشر وقام على العرش مكانه لويس — فيليب .

وفي ١٨٣١ بدأ حياته الادبية والاصلاحية بمقالات في دحض مذهب السان—

سيمونيم . وقد نشرها في ما بعد في كتاب مستقل فكانت ، مع صغر سنه ، مثار اعجاب الادباء .

وفي هذه السنة انتقل الى باريس لاتمام دروس الحقوق . وكان من حظه ان تعرف بالعالم المشهور اندريه — ماري امبير Ampère الذي انزله في بيته واسكنه غرفة ابنه المتغيب اذ ذاك في المانيا . . . وقد كان لمعاشرة هذا العالم العظيم اثر هام في نفسه .

وفي السنة التالية ١٨٣٢ انشأ مع بعض رفاقه مؤسسة «محاضرات التاريخ» بقصد توسيع معلوماتهم الصحيحة والمناقشة المفيدة في ما هم فيه من دروس.

وفي ١٨٣٣ . وكان قد استوعب في نفسه حاجات الشبيبة المثقفة ، التمس من رئيس اساقفة باريس انشاء محاضرات فلسفية دينية في كاتدرائية نوتردام. وفي هذه السنة عينها ، وللغاية نفسها، انشأ مع ثمانية من رفاقه شركة «محاضرات الرحمة » التي اتخذ لها في ما بعد القديس منصور دي پول شفيعاً وسماها باسمه : « شركة القديس منصور دي پول » .

وفي ١٨٣٥ نجحت مساعيه الموفقة لدى السلطة الروحية . وارتقى صديقه الاب لاكوردير منبر نوتردام مفتتحاً محاضراته الشهيرة. فكان ذلك فتحاً عظيماً للكنيسة ونصراً للنفوس الطيبة ومصدر غبطة وتعزية لاوزنام . وفي هذه السنة نال شهادة الليسانس في الآداب . كما نال سنة ١٨٣٦ شهادة الدكتوراه في الحقوق .

ثم في ١٨٣٩ ، قدم لشهادة الدكتوراه في الآداب اطروحتيه عن « دانتي والفلسفة المسيحية » و« القديس فرنسيس دي سال وتجديد اللغة الافرنسية » فأحرز نجاحاً عظيماً رغم ما في موضوعه المزدوج من اشواك .

وعلى اثر ذلك سُلِّم اليه تدريس «الحقوق التجارية» في مدينة ليون . فلمع نجمه في التعليم . وبدأ حملاته في الاصلاح الاجتماعي .

وفي ١٨٤٠ خرج الاول في مباراة الـ (Agrégation) التي انشأتها الحكومة سنة ذاك لاختيار الاساتذة الاكفاء لجامعتها . وكان من نتيجة ذلك تعيينه استاذاً للآداب الاجنبية في السوربون ، وهو لا يزال في السابعة والعشرين من عمره . وبدأ سلسلة تلك الدروس التي نالت رغم وعورة موضوعها نجاحاً عظيماً ورفعت شعبية صاحبها فوق جميع زملائه .

وفي ١٨٤١، بعد ان تزوج وقام برحلة الى ايطاليا، استقر نهائياً في باريس .

وفي ١٨٤٦ بدأ المرض يتعبه واضطره الى اتخاذ سنة راحة في ايطاليا .

وفي ١٨٤٨ اشترك في نشر جريدة « العصر الجديد » (Ère Nouvelle) وانشأ افتتاحيتها الاولى داعياً الى الاصلاح الاجتماعي الحقيقي .

وفي ١٨٥٠ عاد مرضه الى اتعابه . واضطره الى التنقل في سياحات مختلفة لانتجاع الراحة وزيادة المعارف .

وفي ١٨٥٣ ، بعد ان قضى شهوراً في ايطاليا ، احس بقرب الاجل . وهو في الاربعين من عمره . فطلب الرجوع الى وطنه . ولكن الموت داهمه وهو بعد في مرسيليا ، في اوج الشهرة واختمار الفكر والحاح الرغبة في العمل . فكان لموته هزة ألم عميم .

وفي سنة ١٨٥٥ طبعت آثاره كاملة في بضع عشرة مجلداً مع مقدمة بقلم صديقه جان — جاك امبير (Ampère) .

— ٢ —

لا شك ان اسمى الفضائل وأعظمها ، كما يقول بولس الرسول ، انما هي المحبة . فهي وحدها تبقى على الزمان والابدية ، بينما كل فضيلة سواها تقف وتزول على عتبة ابواب السماء .

ولكن ما هي المحبة بدون الايمان ؟

وكيف يحب الانسان ما لا يعرفه ؟ فالايمان اذن اساس معرفة الله وصفاته السامية، والطريق الوحيد الى محبته ومحبة القريب والخلائق كما يرضى هو .

والى ذلك ولا شك نظر المجمع التريدنتيني المقدس حين شبه الايمان في حياة الانسان بالجذور في حياة الشجر .

وفي الواقع ان الشجرة لا تنمو وتخصب وترتفع عالية ، واسعة الاغصان ، غضة الاوراق ، الا وجذورها عميقة في الارض تمتص منها غذاءها وتوزعه باعتدال على سائر الاجزاء .

والنفس السامية الرغائب ، المتطلعة الى العظائم ، المتشوقة الى العمل والبناء والاصلاح يجب ان يكون الايمان اساساً لبنائها . وجذراً مخصباً يغذي اغصانها .

بل هو الجو الرفيع الذي يجب ان تعيش فيه يوماً فيوماً وساعة فساعة حسب قول بولس الرسول: «ان البار من الايمان يحيا».

فالايمان اذن اعظم قوة للانسان في حياته. وامتن صلة بين الخالق الكلي القدرة والمخلوق الكلي الضعف، بين مصدر الخير واداة توزيعه، بين الينبوع الغزير والنفس العطشى. وهو الى ذلك، وبسبب ذلك، اكمل فعل عبادة واكرام يؤديه العقل البشري القاهم الواعي الى الله مصدر كل فهم وغاية كل عقل. لانه خضوع مطلق وثقة مطلقة واعتراف بعدمنا امام الوجود المطلق. وهذا الايمان يظهره الرجل العالم الواسع المدارك مقرّاً لا بما يضاد العقل بل بما يفوق قدرته من اسرار وغوامض ومعارف تجيء عن طريق الوحي والسلطة لا عن طريق القياس والاختبار والحس، تمجيد للعقل الالهي والعقل الانساني في آن واحد.

٥

وقد كان هـذا الايمان المتين الرصين بادياً بين فضائل اوزنام العديدة. كالقائد الجبار المنتصب في وسط معسكره يحميه ويشيع فيه القوة والنشاط. بل كان كما قال عنه لاكوردير «الرباط السامي والمبدأ الوحيد للفضائل التي مارسها والصداقات التي نعم بها».

ورثه عن اسرته التقية. وقد اثر عن احد اجداده، وكان استاذ رياضيات، قوله، في معرض مشاحنات فلسفية: «على اللاهوتيين ان يتباحثوا، وعلى الكنيسة ان تحدد، وعلى استاذ الرياضيات ان يبلغ السماء على الخط المستقيم» (اشارة الى القاعـدة الهندسية المعروفة من ان الخط المستقيم هو اقرب طريق بين نقطة واخرى).

وأنماه بجده وارادته. فاذا استثنينا فترة شك قصيرة انتابته ابان درسه الفلسفة وتغلب عليها بمساعدة استاذه، نراه يحتفظ بصفاء ايمانه مدى حياته كلها بل ينميه يوماً عن يوم ويحميه من غيوم الكفر والريب والاهمال. وقد قال يوماً انه لم يكن في الدنيا شيء اعز عليه من ايمانه ووطنه ومن خدمة الحقيقة وعمل الخير.

وذلك رغم الصعوبات الكثيرة في طريقه. فقد نشأ في عصر اجتاحته

الروح الفولتيرية الملحدة، وهدمت الثورة ما تبقى في النفوس من العقائد الالهية. ثم جاء باريس وهو شاب تقي نقي حي، فاذا به في محيط فاسد فاسق. وسمع محاضرات اساتذة السوربون وكلها طعن في الدين وتقويض لاركان الايمان. فاعتصم بقوة ارادته وحافظ على كنزه الروحي والاخلاقي. ولم يكن له من تعزية في تلك المحن اقوى من اللجوء الى محبة الله والثقة برحمته وعنايته.

بل ان المحن والصعوبات نفسها انما كان يتغلب عليها بالالتجاء الى تعزيات الايمان ومحبة الله. ففي عزلته في باريس بعد فراق بيته وذويه، في حزنه بعد موت كل من والديه، في مكافحة الضلال بين معلميه وأقرانه في السوربون، وخاصة في مرضه الاخير واقتراب ساعة اجله الذي سيوقف مجرى نشاطه ويحرمه مواصلة الجهاد والخدمة. دائماً كان يجد بقرب الله وفي شدة ايمانه برحمته القوة والعزاء والسلوان.

وكان يعلم «ان ركن الايمان هو السلطة وليس العقل. وان العقل كلما مشى قدّام السلطة الالهية، ضل سبيله». ولذلك وضع رقبته تحت نير المسيح. واخضع عقله لتعاليم الوحي والسلطة ومشى الى هدفه مخصصاً حياته وقوته وفهمه وعلمه لخدمة هذا الايمان. وحفظه كاملاً لا يتجزأ. «حاشا لي ان انكر واحدة من عقائد ايماني الذي اضحي بحياتي في سبيله. اجل! حتى تضحية الحياة، حتى الشهادة. والشهادة كما يعرفها هو انما هي اعطاء الذات طوعاً، اعطاؤها كاملة، اعطاؤها حتى الموت يوماً فيوماً في سبيل محبة الله وخدمته. افلم يهدم صحته بطول الدرس والتأليف والالقاء. قبل ان يبلغ نصف عمره؟ وقد اضطرته الظروف يوماً الى اعلان ذلك في وجه بعض من لم يفهموا روحه. قال: «افكانت صحتي تهدمت في الثامنة والثلاثين لولا رغبتي في الدفاع عن المسيحية؟»

على ان ايماناً كهذا لا يقوم ولا يدوم بلا تغذية وعناية. وقد كان اوزنام يغذيه بمطالعة الانجيل والتأمل في معانيه السامية كل صباح. كان يغذيه بمطالعة تاريخ الكنيسة المجيد واعمال احبارها العظام. وقد كتب يوماً الى احد زملائه من اساتذة السوربون: «لو انك لم تكتف بالوقوف على عتبة المسيحية، بل عملت مثلي، فعشت في داخلها، وقضيت ثمانية عشر عاماً في درسها وغذيت نفسك باقوال هؤلاء الملافنة العظام من آباء الكنيسة لوجدت في ذلك ثروة

تليق بعقلك السامي ، ولما جعلت من التسامح والحرية والاخاء ثمرة من ثمار الثورة الافرنسية . فهذه الفضائل انما نزلت من على اقدام الصليب ».

كان يغذيه بالصلاة الوضيمة العميقة حتى اصبحت حياته صلاة متواصلة. فلم يذهب الى القاء محاضرة او درس الا بعد ان ركع وصلى لئلا يتسرب على لسانه شيء من الضلال . ولم يدخل كنيسة الا جثا على ركبتيه واستغرق زمناً طويلاً في بحران صلاته يناجي الله بحرارة ايمانه .

كان يغذيه بالاشتراك بسر الايمان الاعظم . فيحضر القداس ويتناول القربان المقدس كلما استطاع .

اما مجاهرته بايمانه فتذكرنا بمواقف كبار القديسين من قبله . وهو القائل : « اني سأظل متمسكاً بأعمدة الهيكل حتى ولو تهاوت فحطمتني في سقوطها » اكانت اقوى من هذا الاعلان عبارة القديس اغوسطينوس : « انا مع روما حتى ولو قادتني الى الجحيم . » ؟

وذلك انه وجد من علمه مثبتاً لايمانه . « فتش تجد الله في اعماق قلب العلم » افكانت نفسه السامية ترى بعين الروح تلك الحقائق العويصة بخلاف الاعتياديين من المؤمنين ، فيعلن مع بولس الرسول : « اني لعارف بمن آمنت » ومع يوحنا الحبيب : « الذي رأيناه ولمسناه وسمعناه به نبشركم »؟.

حقاً هذا هو الايمان الذي طلبه المسيح من تلامذته وقال عنه انه ينقل الجبال . وان ما عمله اوزنام في نفوس معاصريه كان اعظم من نقل الجبال.

— ٣ —

ومثل هذا الايمان الراسخ يجر وراءه ، ولا شك ، ثقة بالعناية الالهية الابوية المحبة التي بدون ارادتها لا تسقط شعرة من رؤوسنا ولا يصيبنا ذرة من خير او شر ؛ واستسلاماً بنوياً فرحاً لتدابيرها السامية حتى ما كان منها غامضاً صعب الفهم لا يسوغه عقلنا البشري الضعيف .

ففي سنة ١٨٣٢ انتشر في باريس وباء الكوليرا بسعة مرعبة حتى كان معدل الوفيات فيه نحو مئة وثلاثين شخصاً يومياً . واندفع اوزنام في خدمة المرضى دون تحفظ او خوف . وظل مع ذلك بعيداً عن الخطر ولم يقترب الوباء من بيت امه حيث كان يسكن . فنسب ذلك الى رحمة العناية الالهية .

واستشهد بقول المزامير :« يسقط عن جانبك ألوف وعن يمينك ربوات . واليك لا يقترب السوء ».

ومن اقواله :

ان تدابير الله تتم على توالي الزمان . واعظم الناس حكمة هم من تركوا يد الله تقودهم . فلنعمل اذن ما نستطيع ولنترك الباقي لعنايته . قليلاً من الثقة بالآب السماوي الذي بدون ارادته لا تسقط شعرة من رأسنا ».

وحين كانت المعركة حامية حول تعيينه استاذاً في السوربون ، والمنافسون يثيرون عليه الحفائظ ، وهو من هو في عقيدته المسيحية . خاف ان يخسر هذا المركز الممتاز الذي يستطيع فيه ان يخدم الله وديانته . ولكنه عاد ورمى بنفسه بتواضع بين يدي الله قائلاً :« اني ارغب ان يستلم الله هو نفسه زمام هذه القضية الهامة . واذا رأى ان فشلي فيها اكثر فائدة لخلاصي . فلا اطلب لذاتي سوى الرسوخ في عقيدتي والاطمئنان في داخلي . حتى ولو ظلت اسباب معيشتي غير مؤمنة » . ومن اقواله :

— لقد عوقبنا نحن الكاثوليك لاننا وضعنا مجدنا في كبار كتابنا اكثر من اتكالنا على قدرة الله . ان نجدتنا هي من فوق .

— وفي اشد الازمات كان يردد:«لا اعلم الى اين تقودنا يد الله. ولكني واثق انها تسير بنا الى حيث ترى موافقاً » .

— وفي مرضه الاخير، وقد ازدادت نفسه سمواً بقدر انحطاط قوى جسده. كان يردد بثقة وثبات : الهي . اني اريد كل ما تريده وما دمت تريده ومثلما تريده ولانك تريده

وذلك هو الاطمئنان في قلب الله والتسليم التام لمشيئته الابوية الذي ليس وراءه غاية .

— ٤ —

ونتيجة طبيعية اخرى لذلك الايمان : التواضع

قال الاب لاكوردير : « لقد تعلم اوزنام فلسفة صحيحة تجعل من المسيحي رجلاً حكيماً . ومن الحكيم انساناً وديعاً لا يشمخ بعلم ولا بفضيلة » .

تلك كانت خلاصة روحية اوزنام . فانه رغم كل ما امتاز به من عمق

المعرفة، وسمو المكانة، وسعة التأثير في عصره، وعظم المشاريع التي حققها. والخدم التي اداها، ظل وديعاً متواضعاً يعرف ان الخير والبركة هما من عند الله وان الانسان ليس سوى اداة يستخدمها الله متى شاء. وكما يشاء.

ولم يكن تواضعه زائفاً او متصنعاً فينكر ما لديه من مواهب وقوى وما يتم على يده من اعمال. بل مع اقراره بذلك، رده الى مصدره الحقيقي. واعترف « ان كل موهبة كاملة انما هي من فوق من لدن ابي الانوار ».

وهكذا رأيناه ينسب كل نجاح حازه او خير عمله الى رحمة الله ومحبته والى سعي اصدقائه وعنايتهم وتسامحهم ازاء ضعفه.

ورأيناه يرفض مرتين رئاسة الشركة التي اسسها وجعلها هدف حياته وغاية امانيه، مكتفياً فيها بالموضع الخفي المتعب.

ورأيناه يرفض الحاح اصحابه في ترشيحه للنيابة عن مدينة ليون مدعياً انه دون ذلك قدرة ومعرفة وعافية.

ويستاء من اسراع عمدة الشركة الى نشر خطبه الرائعة بحجة ان ليس فيها ما يستحق النشر. ولكنه يعود فيستسلم عندما يقال له ان ذلك مفيد لانشاء فروع جديدة.

ورأيناه، وهو على فراش الموت، يصرح انه لم يعمل قط لمجده الشخصي ولا لسماع مديح الناس. بل لخدمة الحقيقة فقط.

وبقدر ما كان شديداً على نفسه قاسياً في محاسبتها كان رحيماً متسامحاً في معاملة القريب.

وبقدر ما كان مقامه يرتفع في المجتمع وعند العلماء، كان تواضعه ينمو وحبه للفقراء وخدمتهم يزداد، ويجاهر انه يستفيد من زيارتهم اكثر مما يفيدهم.

وهذا التواضع الذي يمارسه يريده لشركته باسرها ايضاً، لعلمه ان الله يحارب المتكبرين ويولي المتواضعين نعمة. كتب سنة ١٨٥٣ من ايطاليا يصف لاصدقائه ازدهار فروع الجمعية هناك وختم بقوله: « لكن مهما عظم نجاح الشركة يجب الا نتكبر. بل بالعكس يجب ان يحملنا ذلك على الاتضاع. ان عشب الحقل، مهما امتد واتسع، لا يتكبر ولا يعتبر انه صار سنديانة. ونحن مع ازدياد عددنا وازدهار عملنا، لنبقَ على بساطتنا وضعتنا. ولا نقابل ذاتنا بالمؤسسات العظيمة التي انشاها الله في كنيسته ».

ويذهب الى ابعد من ذلك بكثير فيزعم مرارًا ومرارًا في رسائله « ان امراضه انما جاءت قصاصاً لخطاياه » .

وقد نعجب من هذا لدى علمنا مـا كانت عليه حياته من الطهر والبعد الشديد عن الخطيئة والمسير الدائم في جانب الفضيلة والمحبة . وقد يخطر لنا ان في مثل هذه المزاعم شيئاً من التصنع او الرياء . والحقيقة ان مثل هـذا التعبير معروف عند كبار رجال الله . حين اسفهم على اهانة الله والتقصير في الواجب .

فالاسف الخطيئة لا يقاس فقط بفظاعتها وثقلها . بل يقاس ايضاً بدقـة ضمير مرتكبها . وكلما تعمق الانسان في معرفة الله عظمت في نظره شناعـة الخطيئة .— واذا اعلن قديس انه اعظم خاطئ ، فلا يعني ذلك انه احصى جميع الخطأة وسبر غور ضميرهم وقاس خطاياه بخطاياهم . ولكنه يؤمن مخلصاً انهم لو نالوا ما نال هو من نعم لما سقطوا مثل سقوطه .

واذا كنا نحن لا نشعر هذا الشعور ولا نستطيع تقديره ، فلأننا لا نزال اطفالاً في الايمان . قاصرين في المحبة ، لا نعرف ان نقيس عظمة الله وحقارتنا .

— ٥ —

وقد يستطيع الانسان ان يتضع ويخشع امـام الله الخالق الاعظم المالئ الكون بوجوده ورهبته وجلاله . ولكنّ التواضع الصحيح انما يبدو في الخضوع والاتضاع امام اشخاص هم في الظاهر ناس مثلنا ، وربما اعتبرناهم اقل منـا قدرًا . ولكنهم في الحقيقة يحملون سلطة الله لتسيير النـاس في سبيل الخير والصلاح والخلاص .— ذلك شأن السلطة الكنسية في العالم

وقد امتاز اوزنام طيلة حياته بالطاعة الوديعة للكنيسة وممثليها . والخضوع لتعليماتهم واوامرهم بكل حب وسرور .

فلم يرضَ قط ان ينشر مقـالًا او كتاباً الا بعد تثبته من رضى السلطة الكنسية عنه .

وكان احترامه للكهنة والاساقفة ولكل ذي سلطة دينية بالغاً آخر الحدود .

وكان جل ما يرمي اليه ان يدافع عن اسم الكنيسة وتاريخها وآبائها . حتى لقد اعتبر ذلك دعوة خاصة به لا يستطيع ان يتهرب منها .

ومن اقواله في هذا المعنى :

– يجب ان يظل سلطان المسيح حيث وضعه المسيح : في يد الاساقفة.

– نحن ابناء الكنيسة قبل ان نكون ابناء السوريون . وليس في ذلك غضاضة . ولن اكون خائفاً ولا جباناً .

وحين زار البابا بيوس التاسع على اثر انتخابه كتب يقول : ... ثم قبلت خاتمه . هذا الخاتم الذي وقع منذ ثمانية عشر قرناً ذلك العدد العظيم من الاعمال والآثار الخالدة .

وحين حرمت الكنيسة مؤلفات الاب لامنه . وحين حرمت كتاب جوسلين للامرتين ، وكانا من اعز اصحابه ، لم ينظر الى الامر نظرة بشرية انانية . بل وقف بجانب السلطة ، ونصح لصديقيه ان يتلافيا الشر الذي اتياه ، ولم يعد حديثه عنهما الا عاطفة رحمة واشفاق .

وهو امر يقتضي في العصر الفولتيري الذي عاش فيه قوة ارادة ، وصلابة عقيدة وشدة في الجرأة لا حد لها .

– ٦ –

ذكرت الجرأة . وهي في الواقع من اظهر مزايا هذا الرجل العظيم ، ومن اطيب ثمار ايمانه الحي العامل العاقل . وذلك رغم مـا كان عليه من الحياء والخجل الشديد في طبعه .

انه اخذ على نفسه ان يحفظ الايمان والفضيلة في نفسه ، وان يعلن هذا الايمان مهما كلفه الامر وان يعيد ملك الفضيلة وسلطـان المسيح الى نفوس معاصريه . فيجب الا يقف دون ذلك عائق من حياء بشري او تراجع امام الخصوم .

وليست جرأة اوزنام جرأة الرجل الضعيف الذي يغطي ضعفه بستار من الوقاحة القاسية النابية ؛ ولا جرأة المتكبر الذي تأبى عليه طباع السوء ان يقر بضعف او جهل او تقصير، كما تأبى ان يحتمل الى جانبه ذا مقام او معرفة او نفوذ.

وانما هي جرأة المؤمن الواثق من امتلاك الحقيقة ، السخي في توزيعها ، المتفاني في حبها حتى لا يرضى ان يرى في خدمتها « خائناً ولا جباناً » .

وهذه الجرأة مارسها كل حياته ، منذ اول شبيبته ، اذ انبرى على غضارة

عوده ، يفند آراء سان سيمون الاجتماعية ويبين ما فيها من شطط وسوء عاقبة. وكانت هذه البدعة تكاد تعم لولا ان قيض لها الله هـذا الشاب الطموح فوقف في وجهها .

وكثيراً ما اسكت اترابه الشباب المفاخرين بكفرهم او فجورهم . بل وكثيراً ما تعرض لمن هم اكبر منه سناً ومقـاماً فافهمهم بوداعة وصلابة ان الانسان لا يجوز له المباهاة والمجاهرة بالحاد او تقصير .

اما معاركه في السوربون ، سواء تلميذاً او استاذاً . فقد كانت صفحة من صفحات الجهاد الجميل . وهو الذي تجرأ امام المئات من رفاقه ان يرد على الاستاذ جوفروى في تعاليمه الكفرية وان يناقشه الحساب في وسط محاضراته ؛ وان يجبره على الاقرار بالحق وتعليم الصواب ؛ وان يعلن عـلى مسمع جميع الحضور ان اتجاه الفكر في السوربون قد تغير منذ دخلها هذا الطالب العنيد في عقيدته .

وما كاد يستلم منبر التعليم حتى جعله منبر محاماة عن المبادئ الصحيحة ، وجهر بالايمان المسيحي المضطهد ، واقتناع بان السلطة للوحي قبل ان تكون للعقل وانه ليس من تناقض بينهما .

وفي ذكر المواضيع التي اختارها لاطروحاته وتعليمه وكتبه اكبر دليل على ذلك . فهو لم يخشَ ان يتقدم لدى الجامعة باطروحة عن الفلسفة المسيحية في شعر دانتي ؛ ولم يخش ان يثبت ان القديس فرنسيس دي سال اعظم ذي فضل عـلى اللغة الافرنسية ؛ وان القديس توما الاكويني اصدق من مونتسكيو في احكامه الاجتماعية . وهكذا . ومن الغريب انه كان يسيطر على سامعيه ببلاغة واخلاص فائقين . حتى ان احد ممتحنيه في شهادة الدكتوراه هتف في وسط الجلسة بعد سماع محاضرته : «يا اوزنام ، لا يمكن ان يكون انسان ابلغ منك الآن !».

قيل له يوماً وهو داخل الى محاضرته،ان بعض الطلاب كتبوا على باب مدرسته : « مدرسة صف اللاهوت » . فلما انهى محاضرته ختم بقوله : « ليس لي الشرف ان اكون لاهوتياً . ولكني افاخر باني مسيحي مؤمن واضع كل قوتي في خدمة ايماني».

على ان الجرأة في اعلان ايمانه والمحاماة عن عقيدته لم تعن في نظره القسوة

في معاملة الخصوم والضالين بل كان من مذهب القديس فرنسيس دي سال في ان جرة من الخل لا تفعل في التقاط الهوام فعل نقطة من العسل .

وعلى هذا كان خلافه مع الكاتب الكاثوليكي الشهير لويس ڤليوت الذي كان مر اللسان قاسي القلم على الخارجين عن الدين . ولذا اتهم اوزنام بمالأة اعداء الكنيسة والتسامح معهم . وقد اعلنت السلطة في ما بعد واقر الواقع ان الحق كان بجانب اوزنام .

كما ان غيرته وجرأته لم تكن تعصباً ذميماً ورجعية تضيق بكل فكر جديد . فقد كان في مقدمة من يقبل الافكار التقدمية الصحيحة والدعوة الى الحرية التي تتفق مع الانجيل . وما اكثر الحريات التي تتفق مع الانجيل . بل التي تنبثق من تعاليمه كما ينبثق الماء الصافي من الينبوع الغني السخي .

وقد صدقت شهادة لا كوردير بانه كان من العدد القليل من كتاب الكاثوليك في تلك الحقبة الذين ظلوا موثوقاً بصدق عقيدتهم حتى النهاية وكانوا مجداً للكنيسة .

— ٧ —

شُهر اوزنام باعمال الرحمة والمحبة المسيحية وبتأسيس شركة القديس منصور دي بول وسهره مدى حياته على تقدمها وتوسعها ، اكثر مما شهر بسائر فضائله وصفاته واعماله . ولا عجب وهو القائل — من بين الكثير من اقواله — : « وددت لو طوقت الدنيا باسرها بشبكة من اعمال المحبة » .

والكلام على ذلك المظهر من حياته يستغرق من الصفحات اكثر مما يسمح المقام الآن . وانما نذكر هنا كلمة واحدة من كلماته ترينا ان عمل الخير لم يكن في نظره الا نتيجة من نتائج ذلك الايمان العظيم الذي كان يغمر قلبه المسيحي الكبير ؛ وان كل مؤسسة اجتماعية او خيرية تظل ضئيلة في هدفها ووسائلها ازاء « شركة » اوزنام التي تضع الفقير الى جانب الغني في كفة موازية لانه مثله ابن لله الآب موزع الخير والصلاح .

قال في احدى رسائله : « هدفنا الرئيسي لم يكن مساعدة الفقير فقط . لا . لم يكن ذلك سوى واسطة . هدفنا الرئيسي كان حفظ ذاتنا ثابتين في الايمان الكاثوليكي ونشره لدى القريب بواسطة اعمال المحبة » .

- ٨ -

منذ مطلع الشباب – كان اذ ذاك في السابعة عشر من عمره ! – وضع اوزنام منهاج العمل الذي قرر ان يتبعه في حياتـه للدفاع عن الايمان المسيحي واعادته سلياً الى نفوس ابناء عصره .

وليس يهمنا ان يكون استطاع تحقيق ذلك المنهاج بكامله او في بعضه . واقل ما يمكن ان يقال فيه ان تنفيذه يقتضي جهود عشرات وعشرات من الاشخاص المجاهدين المتفانين اذا عملوا فيه حياة كاملة . فكيف به وهو فرد لم يعش نصف عمره !.

الذي يهمنا ان ارادة هذا الرجل الجبار ومقاصده السامية لم تكن مجرد رغبات نظرية باطلة . وانما كانت ارادة مدركة فعالة تعرف القصد وتمضي اليه دون تلكؤ مهما كلف من تعب . وقد عملت منه رجل عمل قلما عُرف مثله . اذ في نظره «لا يحق للمسيحي اياً كان ان يقضي حياته في الراحة بطالاً يداه في جيوبه لا يعمل شيئاً في سبيل دينـه وعقيدته ، بينما يرى الجنود يموتون في الخنادق في سبيل الوطن ، والمرسلين يعانون الذل والشقاء في البلاد النائية في سبيل الحضارة . »

ومن اقواله الجديرة بتأمل ابناء عصرنا : « يجب على الكاثوليك الا يضيعوا الوقت في التباغض والتناحر في سبيل حزبيات ومسائل تقبل الجدل ولا يضر في جوهرها خلاف ظاهري » .

وقد عمل وجد وجاهد . ولم ينل النجاح الذي ناله الا بالتعب والنشاط . كان يقضي يومه . واصلاً الليل بالنهار في تهيئة دروسه وكتابة مقالاته وتوجيه رفاقه وتلامذته . حتى هدم صحته في سنوات قليلة . ولو انه احب ان يعيش عمراً طويلاً في الراحة والرفاهية لما مات في الاربعين ، والكنيسة في اشد الحاجة الى امثاله .

ولكن لا بأس . ان حبة الحنطة ان لم تمت بقيت وحدها . ولكنها ان هي ماتت تبعث حياة اخصب وتعطي بدل الواحد ثلاثين وستين ومئة .

- ٩ -

على ان الله تعالى مصدر كل عدل وينبوع كل محبة . لم يترك ذاك الايمان العامل والمحبة العميقة والجهاد المخلص في خدمته ، دون مكافأة وتعزية حتى على هذه الارض .

ففي المجتمع نال اوزنام ببلاغته السامية واخلاصه التام نجاحاً علمياً وتقديراً لدى زملائه وتلامذته فوق ما كان يظن ويرجو هو نفسه . فكانت دروسه ومحاضراته احب شيء الى قلوبهم يقبلون عليها اقبالاً منقطع النظير ويقاطعونها بالتصفيق مرات ومرات . معجبين بمتانة خلق صاحبها ورسوخ عقيدته وغزارة علمه . ولم يكونوا يغضبون لتغيب استاذ او تخلفه عن الصف غير الاستاذ اوزنام حين يضطره ثقل المرض الى التخلف . حتى لقد اضطر مرة ان يقوم من فراشه ويجيء الى الصف مستنداً الى اكتاف اصحابه ليلبي رغبة الطلاب . فبلغ في تلك المحاضرة اسمى درجات البلاغة والحماسة . وكانت آخر دروسه .

ومكافأة اخرى اثمن من التصفيق والنجاح الدنيوي . بل اثمن من النجاح المعنوي في خدمة الدين وعمل المحبة . عنيت ذلك السلام الذي نعم بـه طول حياته . سلام وطمأنينة في عيلته ؛ سلام وطمأنينة مع الناس ؛ سلام وطمأنينة في حياته الداخلية . وفي الحق ، من الذي يستطيع ان يكون عنده ايمان مثل ايمانه واستسلام بين يدي العناية الالهية مثل استسلامه ومحبة مثل محبته ، ولا يكون السلام منتشراً في كل جوانب نفسه ؟ وكان هذا السلام ينمو عنده كلما تقدم في السن حتى بلغ الذروة العليا في ايامه الاخيرة . فقد احتمل اوجاعه وانتظر موته بهدوء ورضى يكاد يشبه الغبطة . وقد اجاب يوماً بهذه الكلمة البديعة الرفيعة على سذاجتها . وكان بعض ذويه يشجعه الا يخاف من عدل الله ورحمته : « كيف اخافه وقد طال ما احببته !» .

٥

اما المكافأة الصحيحة الجديرة بجهاده والتي منحه الله اياها في عالم الراحة والحق والنور بعد انطلاق نفسه من رباط الجسد ، فذلك سر من اسرار رحمته وحبه الالهيين . والكنيسة ما تزال تصلي ليظهر الله للناس ، متى رأى موافقاً ، سر حياة هذا الرجل البار ويسمح باعلان قداسته .

- ١٠ -

اذا كانت شبيبة عصرنا وبلادنا في حاجة الى فضيلة من الفضائل فتلـك حاجتها الى مثل ايمان اوزنام العميق المثمر . واذا كانت تشعر بالفراغ يعض حياتها ويدفعها الى السأم والقلق والخمول فلانها اهملت الرجوع الى المثل العليا التي تجيء من فوق وتحيي. معها بالنور الذي يري الحقيقة ناصعة ويحيل الشك ايمانا والملال رسوخاً ، والقوة التي لا تستريح الا في النشاط ولا تعمل الا في الفلاح ، والمحبة التي تسر بالتضحية والبذل ، بعيداً عن اللذة الرخيصة والغبطة الكاذبة والفرح العابر السريع التارك وراءه سيلاً من الاسئلة التي لا تجد جوابها الا في محبة الله والاقبال على عبادته وقدرته .

ولعل مثال اوزنام — وما اقرب ايامنا من ايامه ! — يكون لهذه الشبيبة المثال الحافز والداعي المجاب والمصباح الذي لا يذهب ضياؤه سدى .

بيروت ٦ كانون الاول ١٩٥٣

اخبار العالم

اخبار دينية

روما : يوم السبت التاسع والعشرين من شهر ايار المقبل تُقام في روما في ساحة القديس بطرس حفلة اعلان قداسة البابا الطوباوي بيوس العاشر . هذا ما اعلنه مجمع الطقوس بعد ان وافق عليه الحبر الاعظم

ثم في غداة ذلك اليوم يقدمّ احد الكرادلة للمرة الاولى الذبيحة الالهية اكراماً لهذا القديس الجديد في كنيسة القديس بطرس بحضور قداسة البابا

* في اواخر شباط بدأ مجمع الطقوس البحث في قضية تطويب الاب شربل مخلوف المولود في بقاع كفرا سنة ١٨١٨ والمتوفي سنة ١٨٩٨ وهو مدفون في محبسة مار بطرس وبولس في عنايا .

فرنسا – مشكلة الكهنة العمال : اجتمع اساقفة فرنسا في اليوم الخامس والعشرين من كانون الثاني للنظر في امر الكهنة العمال فحددوا موقف الكنيسة فيه واعلنوه رسمياً في نقاط اساسية خمس وهي :

اولاً : ان الاساقفة مُصممون على تخصيص كهنة باعمال الرسالة الكهنوتية في اوساط العمال بالتعاون مع كهنة الرعية والعلمانيين المجاهدين

ثانياً : ان التجربة التي قام بها الكهنة العمال لا يمكن ان تدوم على حالتها الحاضرة

ثالثاً : تطلب الكنيسة من الكهنة الذين تخصصهم بالاوساط العاملة ان لا يشتغلوا من الان فصاعدا الا وقتاً محدداً وان لا يتعاقدوا مع اصحاب العمل الا لزمن محدد

رابعاً : سبب تحديد وقت العمل هو الضرورة التي تفرض على الكهنة تتميم واجبات الصلاة والرسالة وهي واجبات تقيدوا بها عند قبولهم الكهنوت

خامساً : يطلب الاساقفة من الاكليروس وسائر المؤمنين ان يصلوا لاجل الكهنة العمال فينتج مما سبق بانه منذ الان ليس بعد في فرنسا كهنة عمال لكن كهنة رسالة العمال .

الهند وحرية الاديان : كان الدكتور كاتجو وزير داخلية الحكومة المركزية في الاتحاد الهندي قد اعلن في خطاب له متكلماً عن المرسلين بانه : اذا كانت غايتهم بمجيئهم الى الهند الانصباب على التبشير بالانجيل فالافضل ان يكفّوا عن ذلك باقرب وقت . هذا الكلام اقلق اذ ذاك المرسلين وحمل الهندوسيين – المطالبين لبلادهم بما يسمونه « رم رج » – اي دولة هندية بحتة – على الظن بان الوزير بمجاهرته هذه قد اعلن استعداده لمساعدتهم على اتمام نواياهم .

ثم حدث بعد ذلك ان مسيحيين من المنبوذين في مدينة كاسورا اضحوا عرضة لاضطهاد

حنيفي من قبل اصحاب العمل وبلغ الوزير خبر هذا الاضطهاد فاظهر حينئذ استياءه من هذه المعاملات الجائرة وارسل كتاباً الى جمعية دلهي المسيحية يؤكد فيه حق كل وطني هندي بالتمسك بالديانة التي اختارها وبممارستها وبنشرها بحرية تامة فاذا حدث ان شخصاً ما او جماعة او منظمة تعدى على اي كان بقصد اجباره على التخلي عن ديانته واعتناق دين آخر كان عمله هذا ذنباً وجريمة . وزاد على ذلك قائلاً : لقد بلغني ان قوماً من المنبوذين في قرى عديدة قد اعتنقوا الدين المسيحي فاني لا اعتبر ذلك الا امراً يخصهم هم وحدهم وليس لاحد الحق بالتدخل في حياتهم الشخصية او باجبارهم على تغيير دينهم .

ايطاليا – دمعان صورة العذراء في سيراكوز : بخصوص هذا الحادث العجيب هوذا اعلان اساقفة صقلية الرسمي : في شهر كانون الاول عقد اساقفة صقلية اجتماعهم السنوي في بنيرية (بالرمو) فاطلعوا على البحث الكامل الذي قدمه السيد ايتوري باراتزيني رئيس اساقفة سيراكوز في حادث دمعان صورة قلب مريم الطاهر في مدينة سيراكوز بتاريخ ٢٩ و٣٠ و٣١ آب واليوم الاول من ايلول من هذه السنة (١٩٥٣) . وقد فحصوا بكل اهتمام ما جاء في هذا البحث من شهادات ومن اثباتات اصلية فاجمعوا على ان حادث الدمعان صحيح لا يُشك فيه وهم يحبذون فكرة الاسراع الى تشييد معبد للذكرى .

اخبار عالمية

مؤتمر برلين : دام المؤتمر من ٢٥ كانون الثاني الى ١٨ شباط وقد ضمّ وزراء خارجية الولايات المتحدة الاميركية وفرنسا وبريطانيا العظمى واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية وهم السادة : فوستر دالس وجورج بدو وانطون ايدن وفياتشيلاف مولوتوف.

كانت غاية المؤتمر الجوهرية حلّ قضيتين اساسيتين : الاولى توحيد المانيا باجراء انتخابات نيابية حرة لتوقيع معاهدة الصلح معها – الثانية توقيع معاهدة الصلح مع النمسا .

وقد خاب تماماً امل كل من كان له امل في نجاح هذا المؤتمر . ولا عجب في ذلك فغايات الشرق السوفياتي والاتحاد الغربي مختلفة ومنافعها متناقضة . فان روسيا السوفياتية تظهر مصممة على التمسك بنفوذها وسيطرتها الشيوعية على المانيا وضمها اليها كباقي الدول الصغيرة التي تجاورها كبولونيا مثلاً . وهي تخاف من وجود دولة المانية موحدة مستقلة ومن امكان اتفاقها مع الغرب ضدها . اما الغربيون فقد يكونون اتوا الى هذا المؤتمر ارضاء للرأي العام وليظهروا للعالم بان روسيا هي وحدها المسؤولة عن حالة اوروبا الشاذة وهم لا يتوقعون من اجتماعاتهم نتيجة عملية جلية .

فرنسا : لم يتوصل البرلمان الفرنسي الا بعد ثلاث عشرة دورة الى انتخاب الرئيس الجديد للجمهورية وهو السيد رينه كوتي احد اعضاء مجلس الاعيان . وقد تمّ هذا الانتخاب في ٢٣ كانون الاول . حاز المنتخب تسعة وسبعين صوتاً واربعمئة وهي الاغلبية المطلقة ، وقوبل انتخابه برضى شامل ، وهو الرئيس الثاني للجمهورية الفرنسية الرابعة .

السودان – انتخابات المجلس التأسيسي : جرت هذه الانتخابات في بدء كانون الاول

من السنة المنصرمة حسب الاتفاق المعقود بين انكلترا ومصر، وقد فاز فيها حزب الاتحاديين ٤٦ كرسياً وحزب الامة ٢١ والمستقلون ١٤ واحزاب اخرى ١٢ .

هذه ملاحظات جريدة « لندن برس سرفس » الانكليزية بتاريخ ٤ كانون الاول في هذا الانتخاب : ان نجاح حزب الاتحاد يمكنه من تشكيل حكومة لا غير . فان اسبابه ليس الا معاضدة قبيلة الخاطمية لهذا الحزب بغاية توصلها الى تسلم زمام الحكم لمقاومة القبيلة المهدية المعادية لها والتي عاهدت حزب الامة . لذلك فاتفاق القبيلة الخاطمية مع حزب الاتحاد لا يدل قط على انها متفقة معه على الانضمام الى مصر ، والى الآن لم يبدُ منها ما يدلّ على انها تريد الاتحاد مع مصر على اي شكل كان خصوصاً لان المتحزبين لها اعلنوا في فرصة الانتخاب رغبتهم في التوصل الى الاستقلال التام .

بقي اذن للمجلس الجديد مهمة تحديد الحكم الذي يريده للبلاد من استقلال او اتحاد حسبما قررت ذلك المعاهدة المصرية الانكليزية في شباط سنة ١٩٥٣ .

سوريا : في ليلة ٢٥ من شباط الجاري اضطرّ الزعيم الشيشكلي الى تقديم استقالته من الرئاسة الاولى عقب ثورة الجيش عليه في حلب وحمص وحماه واللاذقية وحوران ودير الزور ولم يلبث ان غادر سوريا الى لبنان مع عدد من الضباط السوريين وعقب الاستقالة اجتمع قواد المناطق الثائرة وعينوا السيد هاشم الاتاسي رئيساً شرعياً للدولة .

مصر : كان اللواء نجيب منذ زمن على اختلاف دائم مع اعضاء مجلس الثورة خصوصاً بعد اتخاذهم مقررات خطيرة منها تقديم زعماء مصر السياسيين الى محكمة الثورة وحل جماعة الاخوان المسلمين فانه كان يلح في مطالبة سلطات مطلقة واسعة ضماناً لحياته ومستقبله . فلما رفضت عليه عزم على اعتزال السياسة وكان قد قدم استقالته منذ ثلاثة ايام ولكنها لم تعلن رسمياً الا في الخامس والعشرين من الشهر . وعهد مجلس الثورة برئاسة الوزارة الى البكباشي عبدالناصر وبقي منصب رئاسة الجمهورية شاغراً الى ان ينتخب صاحبها حسب القوانين الموضوعة

=

تنبيه هام

عقدت جمعية جرس «Görresgesellschaft» — التي تهتم بتنشيط الابحاث والتنقيبات العلمية في المانية — من الثاني الى الخامس من تشرين الاول سنة ١٩٥٣ اجتماعاً في مونستر (وستفالي) قررت فيه مواصلة سيرها واسترجاع نشاطها العلمي في المعهد الشرقي في اورشليم في مركزها الخاص « اوسبيس القديس بولس » وعزمت على ان تُرسل في السنة ١٩٥٤ واحداً من أعضائها الى اورشليم ليهتم بدروس جديدة في حقل الآداب المسيحية الشرقية .

وقد ضمّت اليها الجمعية منذ سنتين فرعاً جديداً لدراسة الشرق المسيحي.

مطبوعات شرقية

Joseph Schacht : *Esquisse d'une histoire du droit musulman — traduit de l'anglais par Jeanne et Félix Arin 1952. — Librairie orientale et américaine, Paris.*

لقد قام الاستاذ شاخت ، وهو من اشهر المستشرقين العصريين ، بدراسة مسئلة من ادق المسائل واغمضها في تاريخ الشرع الاسلامي وهي بيان نشأته وكيفية تكوينه في طوره الاول . ولئن تعددت الكتابات في صدد هذه المسألة فلا يظهر لنا انه قد جيء حتى الآن وبصورة شاملة بآراء سديدة ومبتكرة مستقاة من الاصول التاريخية نفسها كما هي حال هذه الدراسة الجديدة.

ومن ابرز مميزاتها انها اوضحت كيفية تكوين العناصر الاولى لهذا النظام القانوني الذي عرف من ثم باسم الفقه او الشرع هذه العناصر المستمدة من النظم القانونية التي كان معمولاً بها في البلاد التي استقر فيها الاسلام وانتشر ، وان هذه العناصر لم تندمج في بعضها البعض لتؤلف مجموعة متماسكة وموحدة الا في طور لاحق حيث تأثرت بالتأثيرات الدينية الاسلامية واتخذت بالتالي طابعاً دينياً ظاهراً .

واوضح الاستاذ شاخت ان الاصول الرئيسية للشرع الاسلامي كانت نتيجة عمل واجتهاد استمر طيلة العهد الاموي . فيقول المؤلف ان « الدولة الاموية بعد فترة اضطرابات الخلافة في المدنية قد عملت ، من نواح عدة ، على تنمية امكانيات كانت من طبيعة الملة على عهد النبي . فعلى هذا الاساس بني الشرع الاسلامي» (ص ٢٠) . ولقد كان اصطباغ الشرع — وهو في دور تكوينه — بالصبغة الاسلامية من صنع الفقهاء، ولاسيما القضاة منهم وهم الرجال المتدينون الذين اشبعوا الشرع من الافكار الدينية والادبية واخضعوه لقواعد الاسلام (ص ٢٣) : « فمن الوجهة التاريخية ان الشرع الاسلامي لم ينشأ مباشرة من نصوص القرآن انما كان مبدأ نموه مرتكزاً على عادات واصول متبعة كانت في كثير من الاحيان مخالفة لروح الكتاب او لنصوصه . نعم ان بعضاً من النظم وبالاخص فيما يتعلق بالعائلة والميراث وباصول ممارسة الدين كانت منذ

البدء مستقاة من القرآن . ولكن ما عدا هذه القواعد الاولية ان الاصول المستمدة من القرآن قد ادخلت في الشرع في طور لاحق » (ص ٢٥ — ٢٦) .

وثمة ايضاحات قيمة لما يسمونه « غلق باب الاجتهاد » (ص ٦٥) لمعنى الاجماع (ص ٢٧) كما ان هناك عرضاً واضحاً جامعاً لعمل الفقهاء في عهود تطور الشرع على مر العصور . واشار ايضاً المؤلف الى « المجهود الذي ظل بدون طائل » الاعتراف للسلطة بصلاحية سنّ القوانين في السنين الاولى من العصر العباسي (ص ٤٩) .

وفي القسم الاخير من كتابه بيّن المؤلف ما آل اليه الشرع الاسلامي عندما اعترضته مقتضيات الحياة الحديثة ودخل تحت تأثير عوامل الافكار والقوانين الغربية كما انه اشار الى الجهود الكبيرة التي اتت بها الحكومات والمشرعون لماشاة هذه الظروف الجديدة ، هذه الجهود التي كان من نتيجتها في كثير من الاحوال ان تعدلت بعض من الاصول القديمة تعديـلًا كليًّا تحت ستار خارجي من المحافظة على التقاليد الغابرة .

اميل تيان

منير وهيبة

التسلط على الذات

مكتبة صادر بيروت سنة ١٩٥٢ ، ص ١٦٢ قطع متوسط

لقد اودع الكاتب مؤلفه كثيرًا من آرائه حول دراسة الارادة وما ينتابها من علل وحول شتى العلاجات لشفائها بلغة صريحة واضحة .

واذا اوضح هذا الكتاب امرًا فانه يوضح مبلغ تضلّع الكاتب الذي استطاع ان ينتقل بنا كأننا في نزهة تستطاب عبر المسائل النفسانية المعقدة ، فهو لم يستنكف عن ابداء وجهة نظره بلغة سهلة جلية كلما رأى به حاجة الى ابدائها ، ولئن كان على اطلاع بآخر النتائج التي بلغها علم النفس التجريبي فقد دلّ على روحية لا مندوحة عنها في هذا الصدد .

ولقد خشينا ان يغيب عن انظارنا الانسان الذي تدرسه لتعامله كأنه حيوان قد أعدّ للتشريح .

وما كان اشدنا رغبة في ان نرى من وقت الى آخر اصدار حكم منبثق من الفلسفة الروحية الصحيحة على نظريات فرويد وجانه ويونغ ، واننا لنقع على هذا الحكم المستند الى الفلسفة الروحية ونجده في جميع الكتاب عندما يعرضه الكاتب علينا بحسب طريقته في النظر الى الامور .

وعلى كل لا مندوحة لمن يريد السير الى الامام في معرفة نفسه عن قراءة فصوله الثانية والاطلاع عليها . ا. ع. خ.

الحديث المقتضب في ترجمة اكبر زعيم لبلاد الذهب

بقلم حبيب السيوفي

المطبعة البولسية ، لبنان ١٩٥٢ ، ١٢٦ ص قطع متوسط

انه تاريخ فقط قد دوّنه شاهد قضى سنوات عدة في المكان الذي يؤرخ له نوصف بدون تكلّف تقلبات نضالٍ لم يكن من دون مجد .

واننا لنلمس في كل سطر من سطوره اعجاباً لا بل كَلَفاً يبطله .

ولقد كان يسرنا ان لا يطغى من وقت الى آخر هذا الكلف على الحقيقة التاريخية . ا. ع. خ.

الاخوات الحزينات

بقلم نجاتي صدقي

دار المعارف بمصر ١٩٥٢ ، ١٢٦ ص قطع متوسط

هو كتاب من مجموعة ثماني عشرة قصة تتفاوت في طولها وقصرها تفاوتها في اتقانها . بيد ان هذه القصص تتسم ببساطتها وواقعيتها لان الكاتب اراد ان يقول الواقع كما هو . اجل انها قصص موضوعها الحب وفيها من الامور النفسانية ما لا بأس به : حماسة في البدء وانقشاع غشاء الوهم في النهاية من دون ان يتوسطها امرٌ معزٍ في كآبة العزلة . بَلْهَ لم يشأ الكاتب اللجوء الى ذرائع الالهة الكبرى وانما رأى الحياة ألهوة بذاتها او اذا رغبنا في القول انها مدعاة الى الشفقة . ا. ع. خ.

Wolfgang Lentz : *Iran*, 1952 Heidelberg 1952, 48 pp. Kurt Vowinckel Verlag.

هو كتاب صغير يتضمن معلومات كثيرة قيمة علمية حسنة التنسيق ، قد تناول في بحثه قضية البترول التي شغلت العالم في الايام الاخيرة في غضون النزاع الذي نشب بين انكلترة وايران .

ويجد القارئ في هذا الكتيب تفاصيل دقيقة حول اقتصاديات ايران وتطور سياستها التاريخي .

وليس من تحيّز في ما بسطه هذا الكتيب من اقوال واضحة وقد ذيّله المؤلف بخرائط جغرافية صغيرة تخوّل القارئ متابعة تطور فكرته .

J. Renié, s.m. : *Les Origines de l'humanité d'après la Bible, mythe ou histoire ?* — E. Vitte, éditeur, Lyon, Paris 1950, 158 pp.

لقد افرغ المؤلف معلوماته الغزيرة في قالب يتميّز بميزات مصنفاته كلها ولاسيما مصنفه على الكتاب المقدس . فهو كتاب واضح الديباجة رصين وغزير المادة جديد النقد .

ولقد بلغت جرأة صاحبه الى ان يقرّر احياناً موقفه حيال حركة فكريّة برمّتها . امّا الجدير ايضاحه في هذا الشأن فدأب المؤلف في التنقيب عن المعنى الروحي في العهد القديم وبخاصّة في الاحد عشر سفر الاولين التي تشكل على القارئ وتفسح المجال لعلامات استفهام عدة .

وردّد المؤلف في كتابه بسلسلة من المحاضرات بشكلها البسيط ولغتها المحكية ما اثير من المسائل وتوصّل تقريباً في جميع حلوله الى الحل المألوف المقول عادة به اليوم . اما اذا كان هناك مجال يسمح له بان يختار رأياً من بين الآراء فقد اكتفى بالالماع اليه من دون ان يتخذ له موقفاً خاصاً . اما فيما يتعلق بوحدة اجناس البشر وتعدد اصل اجناسهم فلم يتحفنا المؤلف بجديد . وانما ذكر علوماً عديدة اجمعت على القول بوحدة اصل البشر ، هذه الوحدة التي نصب نفسه مدافعاً عنها والتي قوّضت بعد براءة قداسة الحبر الاعظم بيوس الثاني عشر (*Humani Generis*) دعائم موقف الخصم اذ انه ليس الّا فرضاً محضاً .

وانا لنطوي هذا المصنف وفي النفس حسرة . ا . ع . خ .

M. Elizabeth Crouse : *Les Grands Thèmes de la Bible*. Édition Fischbacher, 33, rue de Seine, Paris, 1951. 441 pp.

يسعنا ان نتلخص من مقدمة الكتاب المعلومات التالية حول حياة المؤلفة وعلى اصل الكتاب . فماري اليزابت «Mary Elizabeth» قد رأت النور في فيلادلفيا من اعمال الولايات المتحدة الاميركية من اسرة تنتمي بفرعيها من جهتي الاب والام الى فئة المتوديست «Méthodiste» الشديدة التنطّس . . . فقد اجتذبها دائماً كل ما يتصل بالتوراة بصرف النظر عن كل معتقد ، ففي عام ١٩٤٠ اصدرت كتاباً في انكلترا بعنوان :

« The Making of the Book : The Story behind the Bible » .

وقد رسمت تاريخ تكوين التوراة وبخاصة العهد القديم . اما ترجمته الفرنسية التي شرعت بها السيدة ربول «Madame Reboul» فتوقفت فجأة عن ان تتم عقب جلاء الفرنسيين ووفاة هذه الاخيرة . ففضلت الانسة كروز «Crouse» بدلاً من انجاز الترجمة ان تضع كتاباً جديداً بالفرنسية «مباحث التوراة الكبرى» استمدّته من مؤلفها السابق ولكن بشكل جديد.

وهذه هي اقسامه الثلاثة الكبرى التي اعلنت المؤلفة عنها في المقدمة (ص ٢٩) «يبسط القسم الاول من كتابنا وفقاً لمجرى الازمنة دراسة تاريخ التوراة ويجمل كل بحث ناجم عنها في موضعه ويبيّن كيفية تطوّر الفكرة التي اوجدتها الاحداث . ومن ثم نرى هذه المباحث قد استحكمت حلقاتها في كتابنا على شاكلة ما هي عليه في العهد الجديد لتتكرر بتغييرات واصداء لا نهاية لها حتى يطّرد سياق تماسكها «بانسجام» الى ان تصل الينا . وتطيف فلسفة المسيح في كل شيء..

وقصارى الكلام ان المباحث الالهية تجتمع حول المسيح وحول ما يتراءى من خلال تاريخ التوراة .

الجزء الاول : «العهد القديم وميثاق الشريعة والتاريخ الخفي» يحاول ان يرسم مجدداً مرمى التاريخ ، تاريخ الاحداث وتاريخ الافكار وهو اعادة الكتاب الاول . « The Making of the Book » .

وتجهد المؤلفة جهدها لتضع مختلف كتابات التوراة في بيئتها التاريخية .

وليس حق من ذلك عملاً ولكن لا مندوحة لنا عن ان نضيف قائلين ان هذا التوسع المسهب المتعلق بالماضي (والملاحظة المسهبة على مخطوطات صحراء يهوذا المكتشفة حديثاً) يكاد ينصرف بنا الى التحول عن الموضوع وذلك لكي لا نقول شيئاً عن الافتراضات لتخمين الماضي كما كان . فالقارئ بعد ان يتصفح ال ١٩١ صفحة (وهي زهاء نصف الكتاب) يوشك على نسيان البحوث المختلفة المشار اليها هنا وهناك . اما مبحث المسيح وهو مركز القطب فكان من الافضل الاستزادة بايضاحه .

ففي اثناء مطالعتنا للصفحة ١٩٥ نقع على ما يلي «ما اكثر المرّات التي سُرَّ بها بالمسيح — الطفل الموعود به الذي كان عليه ان يحكم اسرائيل والعالم برمته — الملك المتحدّر من نسل داود» اجل ليس باصحّ من هذا القول بيد اننا لم نشهده واضحاً كل الوضوح في الصفحات السابقة مع ان مجال الكلام كان متسعاً حول توسيع القول حول رجاء مجيء المسيح المخلص في العهد القديم وبخاصة لدى الانبياء . فهذا البحث في التوراة هو من المباحث الاساسية وعظيم الاهمية اكثر من التمييز بين الحرفية والروح في السياق النبويّ (اشعيا وحزقيال). هذا التمييز الذي اهتمت له المؤلفة . واننا لنخشى ان تكون ثقافتها في التوراة «بصرف النظر عن كل الاديان» قد اثّرت على احكامها في هذا الباب كما في الكثير في غيره التي عالجتها في كتابها فانها لتتطلب ايضاحاً اشد تفصيلاً وتعمقاً في مناقشتها .

والقسم الثاني : «العهد الجديد وميثاق المحبة والمباحث في حلولها» يفرط افراطاً اعظم في ترك وجهة النظر التاريخية في موضعها اي في المرمى الثانوي وربما في ما خلا الصفحات الحسين المخصصة بالقديس بولس ، اذ ترى المؤلفة نفسها انها اشدّ ارتياحاً لتوسيع موضوعها ، مباحث التوراة : مبحث التجربة (تجربة يسوع في البريّة هذه التجربة التي اختارتها المؤلفة لتسيّر كل مهمّتها ولتستنبط منها الاهمية كل الاهمية) ومبحث الملكوت (المفهومين الارضي والروحي) ومبحث الذبيحة والخلاص . . . واننا لواجدون في هذه المباحث لوحات رائعة قد أُحكمت الاحكام كل الاحكام (كوصف تجربة يسوع ص. ٢٠٣ — ٢٠٦) ومقارنات مبتكرة كما هي بين «الشوك الذي يرمز

الى اللعنة التي جلبها ادم على نفسه مثلاً (تكوين. ف ٣ ، ١٧ – ١٩) وبين اكليل الشوك الذي وُضع على رأس يسوع في اثناء آلامه (ص ٢١٧).

ويسمنا القسم الثالث « اصداء هذه المباحث نفسها التي لا نهاية لها » وهي « لا تزال مدويّة بعذوبة يعجز دونها الوصف عبر الاجيال — حتى الان » (ص ٣٠٠).

وفي مثل هذا المقام باستطاعتنا تقدير مواهب المؤلفة الشعرية اكثر من تقديرنا لها في القسم الثاني.

وهاك خلاصة الفصل ذي العنوان « الكأس المقدسة »: « لقد كانت ذبيحة يسوع الثمن الذي دفعته — عبارة محبة الله الاخيرة بنفسها — لتخليص الانسانية المحبوبة. ولقد انقطعت الذبيحة عن ان تكون ذبيحة مذ اوتيت الظفر فاشرقت حقاً الكأس المعدّة للشرب وهي تشع بعذوبة المحبة . . . كالازهار المشرئبة نحو الشمس تفتح كنها بحركة هي الصلاة لتستزيد نوراً فكذلك الانسان المطهّر، الانسان مع المسيح وهو الذي اجتذبته المحبة، فيرفع كأس قلبه ليفوز بهالة جمال هذه المحبة في جميع كمالها » (ص ٣٠٢ — ٣٠٤).

« ان فلسفة المسيح تطيف في هذا الكتاب» الذي يقوم غرضه الرئيسي على تحليل فلسفي وجيز عصري لشعر الكتاب المقدس العميق (المقدمة ص ٢٧).

ومن المستحيل تلخيص فكرة المؤلفة هنا خشية ان نشوّهها فلذلك نفضّل ان ندع للقارئ امر الحكم بشأنها.

وان نقطة الانطلاق اولاً هي « الحلم الآدمي ». ومن ثم ملحوظة تنبّهنا الى ان رواية ادم التقليدية تختص بعهد الاساطير حيث لم يكن الزمن موجوداً وحيث كان العالم في طفولته ليتخذ عن طريق الحدس انطباعاته ويعرب عنها بروايات كاقاصيص الغيلان — اما في روايات العبرانيين البدائية هذه فنقدم حقيقة — مستورة احياناً — هي اعمق من الوقائع واحق منها » . ولقد اردفت المؤلفة تقول: « لقد نام ادم واننا نتبع الحلم فانه لم يُقل ان الرجل قد استيقظ.

وفي حالة الحلم هذه التي اصبحت الحياة الانسانية فان خطيئة ادم — التي تشتمل على كل خطيئة — هي المعصية والاعتقاد انه بمقدوره ان يكون شيئاً اخر غير انعكاس الخير المطلق الوحيد والمطلق . وبعد ان اصغى الى ايحاء

الحية وهذا هو الضلال الاول — توهم انَّ ثمت سلطة اخرى اعتقد هذا الانسان انه واجدها تحت اسم الشر . . . ويبدو ان احساسه المادي قد جعل احساسه الروحي قاحلاً . حتى لما رأى نفسه ككائن مادي وجد ذاته عارياً من الحقيقة الواقعية ومجرّداً من ثوب عفافه الناصع النيّر فشعر بعريه وتلاشيه وعدمه فاعتراه الخوف بهذا الشعور الكاذب بنفسه .

وعندما اعتقد انه حرّ اي منفصل عن الله حاول الاختباء من وجه الاله (ص ١١).

واهاب به هذا الشعور الكاذب الى الاعتقاد «ان حياة الكائنات الفردية لا تقوى على الاستمرار ما لم تأخذ شيئاً من حياة غيرها · فكان في هذا المقام مصدر اقتناص الفريسة والتنازع على البقاء على نفقة الغير ، هذه هي شريعة الغاب،وهي غير الشريعة الاخلاقية،وانها ستستمر في مواصلة الكفاح الاناني المادّي في سبيل احرازها الظفر الى التقاطع العظيم ونهش الامم بعضها لبعض. . .ونحن ما برحنا نعيش في العصر الآدمي على الارض ، انه لعهد سيطرة القوة (ص١٣).

ولقد استمددنا هذه الفقرات من مبحث ادم الذي يفتتح القسم الاول من كتابه الانسة كروز . ويفيدنا القسم الثاني ان مهنة المسيح تقوم حقيقة على انقاذ هذا الشعور الكاذب « بايقاظه من حلمه » فالمسيح الابدي « الصورة المرسومة » الانساني الكامل في الفصل الاول من التوراة هو السدوا. الدائم « المعدّ من ذي قبل» ضد ادم والمفهوم الخاطئ والتقاطع والانشقاق والانقسام .

ولقد كان من اللازم ان هذا المسيح الاوّلي وهو فكرة البنوّة والانبثاق الاول من الله بشكل انسان كامل يقاوم كل تجارب حلم الحياة الانسانية ويذلّل بتضحيته اشنع محنة الشرير في انتصار رائع على الموت لافتداء الانسانية وايقاظها (ص ٢٣٠)

ويدعونا القسم الثالث الى مؤازرة هذا الافتداء بتضحية انانيتنا على غرار المسيح « من دون ان نكون مضطرين الى المرور بتجربة يسوع نفسها فنعرف مثله عميق قرارة البغضاء والموت . فعلينا لكي نشاطره بتضحيته ونستفيد منها ان نقتدي بمثل يسوع، فتزيل منا معنى الحياة الشخصي والمادي، وبذلك نستنبط مجدداً فرديتنا الحقيقية ، وقد قال يسوع «من اراد ان يخلص نفسه يهلكها».

« ومن اهلك نفسه من اجلي ومن اجل الانجيل يخلصها » (مرقس ف ٨–٢٣) (ص ٣٠٢) .

ولقد غدا اليوم الحلم كابوس الانسانية والحيّة تنين رؤيا يوحنا الانجيلي (ابوكاليس) وهذا الحلم الذي يمثّل الايمان بالثنائية يسلّم بعلة ثانية للكون او بإله مسبّب للشر . . . على حين ان يسوع قد حدّد الشر بتعريف مفهوم كل الفهم فوصفه « بالشيطان . . . الكذاب وابي الكذب . . . ليس فيه حقيقة مطلقاً» . فهو الظاهرة الكاذبة للحقيقة ومفهومها الخاطئ وانعكاس الخير المطلق انعكاساً مقلوباً – كالجبل الذي يبدو منقلباً رأساً على عقب في بحيرة ، وهو يشير في الوقت نفسه الى اصله القائم » (ص ٣٣٩ – ٤٤٤) بيد ان الانتصار على الشر بات محققاً ، فالقديس يوحنا في رؤياه قد شهد سلفاً سقوط « التنين العظيم والحية القديمة المدعوة بالشيطان او بابليس » .

فهكذا سينتهي التنازع على البقاء الذي يقوم به احساس الانسان بشخصيته اذ كل واحد يهب ضد الجميع وعلى غيره في ظل شريعة الغاب الكاذبة . وستضمحل الانانية وستعوض فردية كل انسان الحقيقية عن احساسه الكاذب (بانا) وبالتخلي عن كل شيء نحرز كل شيء ، وستتحد مع الله ومع سائر الناس بالمسيح وسيتم الظفر هنا والان ويوماً فيوماً ، وان الذي نفتقر اليه ويعتد بشهادته ، شهادة المؤمنين (رؤيا ف ١٢ الاية ١١) هو تغيير مفهومنا للحياة ، لان الحياة لا مادية هنا وفي العالم الاخر ولا سبيل لوصفها بذرائع مادية فالكمال موجود والتقدم المستمر بدون انقطاع يتم بتحقيقنا له » (ص ٣٥٣) .

وصفوة الكلام بالخلاصة ليس ثمت قوتان متعارضتين – الايجابية والسلبية – فالحقيقة وحدها موجودة – ولا تتغير . والضلال لا خالق له – فهو لا مخلوق ولا خالق . وبما ان لا اساس له في الحقيقة فلا يستطيع ان يكون له اصل حقيقي – ولا يستطيع ان يكون سبباً . . . وان ما يعرفه الله هو واقعية الاشياء . وان ما نعتقد اننا نعرفه هو غالباً ما لا وجود واقعي له . فجنسنا هو الان كطفل يرقد بين ذراعي امه وهو وان كان بمأمن فيزعجه كابوس الرعدة ، ويرى نفسه فريداً في غابة يلحق به وحش ضار ، وبوجوده على هذا الشفير

نفسه لا يبرح شاعرًا شعورًا كافيًا بالمحبة المجدية لكي يستنجد باسمه ، التي لم ترَ الوحش ولم تدع ابنها يشرد وحيدًا في مكان ذي خطر وتعلم انه في حرز حريز لترقظه .

ولقد اوحت اليَّ هذه الاقصوصة الوجيزة امورًا كثيرة (ص ٣٥٥ — ٣٥٧) وثمت عشرون صفحة في القسم الرابع ذي العنوان « اليوم » هي كنتيجة قالت فيها المؤلفة ما يلي :

«لا مندوحة لنا اما عن مسيح واما عن ادم .. فالطريق التي ابانها المسيح هي طريق التضحية لنيل المكافأة الكبرى ، فذبيحة الجد التي رُمز اليها في القديم بذبح الاضاحي من الحيوانات قد اتخذت نموذجاً لها وتجدت بذبيحة يسوع — القربان الذي يمثل اقصى درجة اطاعة « الانا » — لتتمّ فينا بانتصارنا على الجشع المادي وبذلك تبلغ الفرديّة الحقيقية في الاتحاد — اتحاد البشر والامم .

ان تعليم المسيح هو البشارة الكاملة بالشريعة الاخلاقية المؤسسة على المحبة فمن يمارس المحبة يجد بها قوة عملية في الحياة الانسانية .

ويقلب هذا التعليم الاخلاقي شريعة الغاب الآدمية التي ما برحت قائمة حتى يومنا لتبلغ ذروتها في عصرنا بطناً لظهر .

ان سرّ كل امر — ان مثل التوراة الاعلى — هما اقتداء الانسانية بتضحية « انا » الجشعة في سبيل الفردية الحقة في الاتحاد بصورة الله ، وسيحين انتهاء العالم الذي ينحي الحلم الآدمي على الارض وهو نهاية فكرة الحياة المادية مع جميع مخاصماتها وقتلاها » (ص ٤١١) .

ونحن في طليعة الذين يقولون ان بتر احد النصوص يجعله خاطئاً وانما نعتقد ان الاستشهادات التي مرت بنا يسعها ان تقدّم لنا فكرة تقريبية عما هي « فلسفة المسيح » في نظر الانسة كروز « Miss Crouse » . وليس من اختصاصنا ان نحكم بشأنها . فالتوراة للمسيحيين هي ارث الاسرة الكبير الذي يستصدر كل انسان منها بحسب حاجاته وذوقه ، على حين اننا كنا نرغب في ان نجد الى جانب شعر « مباحث التوراة الكبرى » وفلسفتها استزادة في الايضاح في سبيل ايماننا وتغذية ورعنا .

ل . ب .